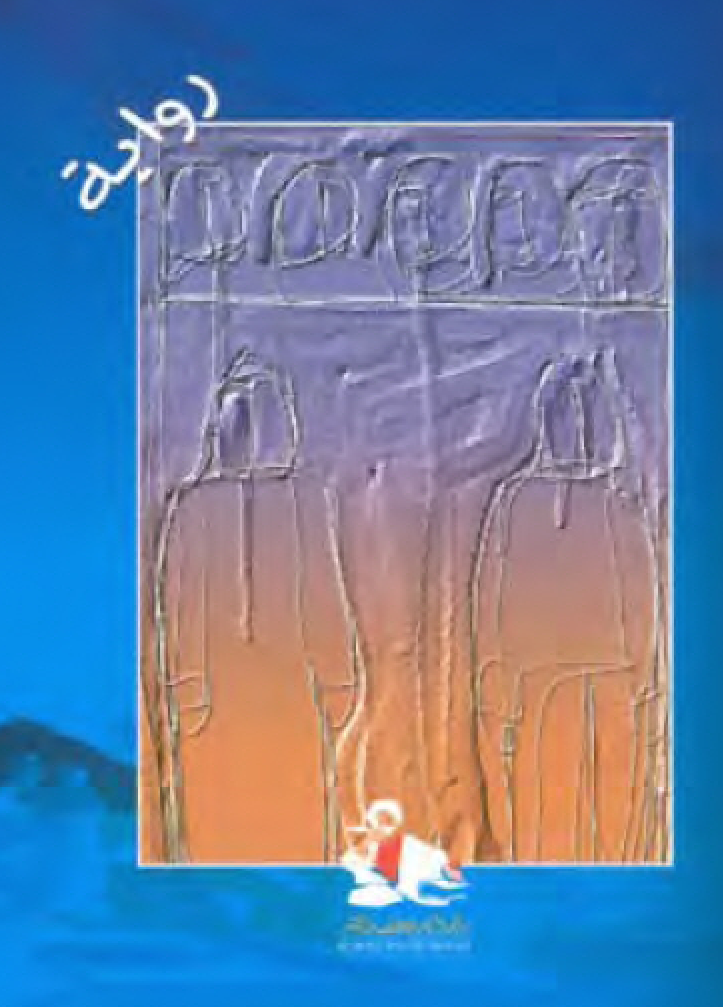
فضيلة الفاروق

إكتشاف الشهوة



فضيلة الفاروق

اكتشاف الشهوة

رواية



جمعتنا الجدران وقرار عائلي بالٍ، وغير ذلك لا شيء آخر يجمعنا، فبيني وبينه أزمنة متراكمة وأجيال على وشك الانقراض.

لم يكن الرجل الذي أريد...

ولم أكن حتماً المرأة التي يريد، ولكننا تزوجنا.

تزوجنا، وسافرنا، ومن يومها انقلبت حياتي رأساً على عقب.

حين وصلنا إلى باريس، لا أحد احتفى بقدومنا، المدينة كانت تشرب نخب ولادة المسيح، الأزقة ثملة والأضواء منتشية. أمّا غرفة النوم، التي كان يجب أن تكون غرفة عريسين فلم تكن كذلك، كانت كئيبة بألوان باهتة، وكانت صورة زوجته السابقة رابضة قرب السرير، بعينين زرقاوين وابتسامة باردة، لقد نسي أن يخفيها

قبل أن أدخل. صَعُبَ عليَّ أن أشعر بارتياح بعدها وامرأة أخرى تشاركني الغرفة. كانت تملأ الغرفة.

في الخزانة بعض ثيابها الداخلية، و«صندل» بكعب رفيع، وزجاجة عطر نسائي على «الكومودينة»، وفي الحمام وجدت فرشاتين للأسنان استنتجت أن إحداهما لها.

أخذتُ حماماً سريعاً، وحين خرجتُ كانت الصورة قد اختفت، والثياب، و«الصندل»، أما زجاجة العطر فقد ظلت في مكانها.

لزمنا أكثر من ساعة لنتبادل بعض الكلمات، ثم اقترح أن ننام حين رآني أتثاءب. حاولتُ ليلتها أن أكون عروساً مطيعة، لكن شيئاً ما في داخلي كان يرفض ذكورته، دخلتُ الحمام، وأغلقت على نفسي الباب.

فقد تخيلتني عاهرة تتعرى أمام أول زبون تحمله لها الطريق.

كيف لغريبين مثلنا أن يمارسا الجنس كما يجب؟

طرحتُ السؤال على نفسي أكثر من مرة خلال تلك الأيام المشحونة بالغضب بيننا، وفي اليوم السابع جنَّ جنونه، حاصرني في المطبخ، ومزّق ثيابي، ثم طرحني أرضاً واخترقني بعضوه.

لم يحاول أن يرجهني. لم يحاول أن يفهم شيئاً من لغة جسدي، أنهى العملية في دقائق، ورمى بدم عذريتي مع ورق «الكلينكس» في الزبالة.

عجزتُ عن الحركة بعد تلك الغارة. ما اخترقني لم يكن عضوه، كان اغتيالاً لكبريائي، وفيما أشعل سيجارة انتصاره ليتمم بها متعته، قمتُ منكسرة نحو الحمام.

غسلتُ جرحي وبكيت.

لم أحلم في تلك الليلة. فقد فاتني قطار الأحلام، وتركني واقفة على محطة مقفرة تنعق فيها غربان الخيبة.

ليلتها، لم يزرني الشاب الأسمر الذي طالما حلمتُ به، لم يُلامسني بغابته الصغيرة قبل أن أستسلم للنوم تماماً ولم تحلّ سمرته عليّ كليل رومانسي جميل.

كانت تلك ليلتي الأولى بدون رجل، كانت ليلة تنزف بين الفخذين إهانةً قاتمة، ليلة لا معنى لها، حوّلتني إلى كائن لا معنى له.

* * *

حقارتي بدأت من هنا. من هذا الزواج الذي لا معنى له، من هذه المغامرة التي لم تثمر غير كثير من الذل في حياتي، وكثير من الانهزامية، والتلاشي، والانتهاء. في غاية السخف كانت تحدث لي أمور لا أفهمها، أمور تجعلني أنتهي، وأتوقف عند لحظة اتخاذي لقرار الزواج.

خمس وثلاثون سنة، وأنا في انتظار (عريس) يليق بحجم انتظاري

ومواهبي، ورهافة مشاعري، وإذا بي كما يقول المثل: «صام صام وفطر على بصلة».

أليست الحياة مضحكة حدَّ البكاء أحياناً؟

أليست ضرباً من الجنون الذي نخطط له بعقولنا؟

«مود...» بالمختصر المفيد لم يكن لي.

إنه رجل لا يجيب على كل الأسئلة، فكثيراً ما يُعلّق أسئلتي على شماعة من الصمت وينصرف إلى عمل ما يخطر على باله فجأة. فقد عرفتُ على مرّ الأيام أنه رجل له لغته الخاصة، فهو يأكل أو يدخل الحمام أو ينام حين لا يعرف أن يجيب. وكان صعباً عليَّ أن أتفاهم معه ولغة التخاطب عنده لها عدة أشكال مبهمة.

حين مَرّ شهر على حياتي معه، شعرتُ أنني عشتُ معه قرناً من الزمن، إذ كانت أيامي معه ثقيلة رغم أنها فارغة ووحده الزمن كان يتسع من حولي، أمّا أنا فقد كنت أتقلّص وأصغر، وأتحوّل إلى صفر.

بعد شهر تماماً، صرتُ نقطة بلا معنى في شارع باريسي ضائع في الكون الذي لم أعد أفهم له معنى.

أين المألوف؟

أين الجيران الدافئون؟

أين أصوات الباعة الفقراء، حيث كل شيء يباع بـ «خمسة آلاف»؛

الساعات، «الكيلوتات»، حمالات الصدر، والمناشف، وغيرها من القطع التي تتساوى في السعر؟

أين قسنطينة؟

وأصوات المآذن؟ ورائحة المحَاجِبِ والزلابية والبوراك؟ يدهشني أن لا رائحة في باريس، وأن لا أصوات في الحي الذي أقطن فيه، حتى الشارع، لا مارة فيه بالمعنى الحقيقي، أشباح تعبره من حين لآخر ثم تختفي عن الأنظار.

لقد بدت قسنطينة أكثر صخباً من ذلك الحين الذي دفنتُ فيه نفسي. ولأن «مود...» لا يعنيه الفن وما شابهه، فقد سجنني في نمط حياته المفرغ تماماً من كل أشكال الثقافة فمعه الحياة مبهمة لا أدري كيف تبدأ، ولا كيف تسير، ولا كيف تنتهي. هي لفيف من الفوضى التي عكّرتُ بها صفو حياتي.

مرةً واحدة رافقني إلى السينما لأشاهد فيلم «المريض الإنكليزي» وقد تضايق مني حين بكيت.

في الحقيقة؛ الفشل في الزواج يبدأ من هنا، حين نرى الأشياء بمنظورين ليس فقط مختلفين بل متناقضين.

حتى حين يمارس الجنس معي، يفعل ذلك بعكس رغبتي تماماً. كان يعود متأخراً كل ليلة، فيوقظني لحاجة في نفسه. ثم يفعل ذلك كما في كل مرة بسرعة ودون أن يعطيني مجالاً لأعبّر عن وجودي، كان يقوم بالعملية وكأنها عملية عسكرية مستعجلة يسلمني بعدها

للأرق، لأن ما يحدث لجسدي لا يختلف كثيراً عن أي كارثة طبيعية تستلزم فريقاً من النجدة للملمة ما حدث. قد تعود جذور الأرق عندي لحادثة أخرى، لكنه تفرّغ وترعرع في بيتي الباريسي الواسع، تبعه إدماني كل أنواع الحبوب المنومة والمهدئة.

ومشكلتي مع النوم قذفت بي إلى سلوك جديد، متقلب ومختلف عني تماماً. شيئاً فشيئاً أصبحتُ امرأة عصبية معطّلة الحواس، تتضايق من أنوثتها المنتهكة، من منظرها في المرآة، من الخواتم، والأساور والأقراط، وأصابع الحمرة، وحمالات الصدر، ومن الصدر نفسه ومن الشق الذي أحمله بين فخذي.

شيئاً فشيئاً وجدتني أتكاسل للنهوض من فراشي صباحاً، وأهرب لمزيد من العزلة، وأتناول مزيداً من الأطعمة، وأموت كثيراً، في كل الأوقات أموت.

اتسعت الهوّة بيننا، صارت خندقاً عميقاً بحجم الليل وحتماً لم يكن «مود...» يبالي باتساع تلك الهوة كان يعود ثملاً في الغالب، والحمرة النسائية تلطخ قميصه، والمني يلوث ثيابه الداخلية.

وكان لا يهمه أحياناً رفضي لإطفائي رغبته، إذ بسهولة كان يجلس أمام إحدى القنوات البورنوغرافية ويمارس العادة السرية دون أن يعيرني اهتماماً.

ـــ أيتها العاهرة الحقيرة، لست بحاجة إليك.

يقولها لي، ويتوجه نحو غرفة الجلوس.

هناك ينام، وهناك يستمني، وهناك يتحوّل إلى رجل أكرهه. لماذا تمّ الزواج بيننا إذن؟

أطرح السؤال على نفسي، ولا أجد جواباً يقنعني سوى أننا في الخامسة والثلاثين، في مجتمعنا المغلق نتوهم كثيراً حين تتعلّق المسألة بالزواج.

ورغم ما كنتُ أؤمن به من أفكار، وجدتني في الثامنة والعشرين سلعة قديمة دهمتها موجات الموضة وأحالتها إلى الرفوف المنسية.

للأسف كنت أنتمي لمجتمع ينهي حياة المرأة في الثلاثين.

وكنا جميعاً نعيش في قفص، خارج أجسادنا تماماً خارج رغباتنا، نحلق في فضاء من القوانين المبهمة والتقاليد التي لا معنى لها، ونظن أننا أحرار. من جهة كنتُ أخاف من والدي، ومن جهة أخرى من أخي إلياس، ولهذا بترتُ أكثر من علاقة قبل أن يأخذ أحدهما خبراً بها.

ربما أحببت، ربما لا! ربما ما كان حبّاً ما كنتُ أشعر به تجاه الرجال الذين عرفت، إذ كانت تستهويني لعبة الإيقاع بهم، تلك اللعبة التي تبدأ بالكلام وتنتهي بالهروب.

ربما اشتهيتهم، ومارستُ العادة السريّة وأنا أستحضر صورهم.

ربما فعلت ذلك انتقاماً من والدي وأخي إلياس، هما اللذان لا يزالان قابعين في داخلي ولم يختفيا أبداً من مبنى الخوف الذي شيّداه في قلبي.

حتى وأنا هائمة في شوارع باريس ينتابني شعور غريب بأن أحدهما يتعقبني ويراقبني. فألتفت خلفي أحياناً أبحث عنهما بين الوجوه، وأتخيلني فأرة تركض في قفص. بدافع الخوف كنتُ أغادر الأماكن كلها، وأخلي الذاكرة من كل الرجال الذين عرفت أو من أي شيء قد يصنّف ذكراً.

فبالنسبة لي إلياس تنين خرافي بعشرة رؤوس قد يطالني حتى وإن عدتُ إلى بطن أمي.

كان في الرابعة عشرة حين رآني ذات يوم مع عصابة «أبناء الرَّحبة»، عاد إلى البيت هائجاً كثور مجنون، وأضرم النار في سريري، وقد كاد البيت أن يحترق يومها بسبب فعلته لولا أن هبَّ الجيران وأخمدوا الحريق وقد وقف والدي أمام فعلته مديد القامة فخوراً بما حدث، وقال له أمام الجميع:

ــ في المرة القادمة عليك أن تحرق السرير حين تكون نائمة عليه.

هل بدأت قصتي مع الأرق منذ ذلك اليوم؟ لا أدري بالضبط.

لكنني أتذكر جيداً أنه صار صعباً عليَّ أن أؤم إلى فراشي إذا ما نعست، كنتُ أرتمي على أي كنبة في الدار وأنام، ومرة نمت في المطبخ على الجلد الذي تنام عليه الهرّة.

لم أكن فتاة مسالمة في الحقيقة، كانت رغبتي الأولى أن أصبح صبياً، وقد آلمني فشلي في إقناع الله برغبتي تلك، ولهذا تحولت إلى كائن لا أنثى ولا ذكر، لا هوية لي غير الغضب الذي يملأني

تجاه العالم بأكمله. وحين بلغت سن البلوغ أصبتُ بالنكسة الحقيقية...

هل أروي التفاصيل؟

الدم كان أحمر قانياً، الجرح كان في الموضع الذي أخجل منه وكلما غسلت الدم النازف، ومسحته جيداً، عاد ونزف من جديد، وغير ذلك كان الألم في أسفل بطني فظيعاً، لم يصبني من قبل مثيل له حتى في أقسى حالات الإسهال. في الرابعة عشرة من عمري، كنتُ واثقة أن ما أصاب البنات لن يصيبني في عمرهن، وقد عشتُ ذلك الوهم على طريقتي.

كنتُ الصبي ذا الضفار الطويلة والقدمين الوسختين، والفستان الذي يتمزق لسبب ما، والخلَق الذي يضيع في «سوق العصر» أو في «الجزارين».

كنتُ صبياً مشوهاً، يخلق عالمه الخاص في أزقة قسنطينة القديمة، تلك الأزقة الحجرية الضيقة التي تفوح برائحة عقاقير العطارة، تلك الأزقة، أزقتي أنا، والتي كانت تشكل جزءاً من انطوائي ورفضي لمنطق الطبيعة.

العتمة والظلال، وصياح الباعة، وحركة العجائز والشيوخ البطيئة، تلك الأزقة المغلقة كانت تمنحني بعض الطمأنينة.

ذاك الجزء الذي شاخ من المدينة، ذاك الذي يقاوم الموت بعراقته، كان جزئي المحبب إلى قلبي، تلك الحيطان الحزينة، بذلك اللون

الذي يميل إلى لون البكاء، كانت حيطاني أنا، وكانت تبتهج حين أبتسم لها، وحين ينفخ فيها «المألوف» سحره، «المألوف» كان «مألوفي» أنا أيضاً.

وكل تلك الحارات المتعانقة التي تنتهي عند قسنطينة الحديثة بمبانيها الفرنسية الأنيقة، وشوارعها المكتظة بالناس، وحزنها الذي لا يليق بها.

بداية من شارع فرنسا تنتهي تحفّتي أنا لأتحوّل إلى تلميذة ذكية سيئة الطباع.

من هنا أقطع الشارع وأنا أتأمل ألوان المارة غير المتناسقة، لأبلغ «الكديا» حيث مدرستي «الأختان سعدان». وحيث مرارة الحنين تتحول إلى مخدر لذيذ. هنا عرفت شقاوة الثالثة عشرة وما كان يعنيه لي ذلك العمر الذي جعلني أستفيق من حلم الصبي ذي الضفائر الطويلة.

في الثالثة عشرة تماماً، اكتشفت أن أحلامي تتعثر ببروز نهدين صغيرين لي، بوجع يتكوّر ويكبر، ويصنع مهانتي بإتقان.

من هنا ما عاد بإمكاني أن أرافق والدتي إلى حمام «دبلهوح»، ولا أن أتعرّى أمام أحد، وصرت عدائية نحو الجميع بداية من نفسي!

ـــ باني أين أنت يا باني؟

يتناهى لي صوت جدتي المقعدة من غرفتها الصغيرة وهي تناديني بصوت مخدوش ومتعب، فلا أرد عليها ولكنني أظل واقفة أمام الشباك المطل على «شارع شوفالييه» أتأمل ذاك المنعطف الذي تمله سخرية القدر؛ عشرات الشبان العاطلين عن العمل يستندون إلى الحيطان في انتظار انقضاء العمر.

يعلو صوت جدتي من جديد في قعر الذاكرة:

ـ «باني، أريد جرعة ماء».

ثم يخمد، لأني أواصل تجاهلها، فتغتاظ أمي وتخرج من غرفة المؤونة حيث تنكب على صنع «الثريدة» للبيع. وتمسكني من ضفائري، تجرني إلى المطبخ وتُحمِّلني كأس جدتي البلاستيكي معبأ بالماء وتدفعني به نحو غرفتها.

أجلس قربها كقطة غاضبة وأسقيها بسرعة تثيرها وأنا أردد أي شيء قد يجعلها تنتفض غضباً:

«لماذا تشربين كثيراً؟».

تتشردق عادة، فأتركها تسعل وأعود إلى الشباك أتأمل حركة الشارع، قبل أن أدلق بما تبقى في الكأس من ماء على أحد أبناء «الزنقة».

و«الزنقة» تعني مجموع ما يحيط ببيتنا من بيوت وحوانيت، وشوارع ضيقة، ولفيف الحزن الذي يطوّق الجباه والفرح الذي يأتي متنكراً، والفقر الذي يتبنانا جميعاً، والحاجة والعوز والمرض الذي

كيفما كان نداويه بالنعنع.

الزنقة!

عالم الرجال الطابق، والشقوق النسائية، وبكاء الرضع والأطفال، وصراخات الذين يلعبون ويمرحون، وتراكم القهر الداخلي.

الزنقة!

يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وسنة بعد سنة، ودهراً بعد دهراً، هي ذاتها... هي.

«باني ... باني...».

يعودُ صوت جدتي متألماً، مقزّزاً، يناديني لأنها تريد أن تدخل الحمام.

تقوم والدتي مرة أخرى، تترك ما في يدها، وتتعاون هي وأختي «شاهي» على حملها إلى الحمام.

لا تنتهي طلبات جدتي عند هذا الحدّ، فبعد فترة وجيزة تطلب شيئاً للأكل تغير به طعم فمها المرّ، ولا تكف عن مناداتي أنا.

«باني... تعالي يا باني...».

حتى حين أكون في المدرسة، تقول والدتي إنها لا تكف عن مناداتي، ما يجعلها تُصَابُ بنوبة غضب فتصرخ في وجهها «باني في المدرسة، ماذا تريدين؟».

فلا ترد.

أظن أن جدتي تحبني لأني حين أكون بمزاج رائق أحدثها عن أخبار «الزنقة» وأخترع لها ما يسليها من أقاصيص:

تسألني:

«وزوجة الجزار؟».

فأجيبها:

«لقد طلّقها زوجها، وطردها أمام الناس، هي وأولادها، وهو الآن يحضّر نفسه للزواج من صبية في العشرين».

في الثالثة عشرة كنتُ أعرف أن أخترع أقاصيص الزواج والطلاق، والنساء اللواتي يشعوذن لأزواجهن وحكايات الحب التي تقصف في المهد وتنتهي نهايات مأساوية، وما تفعله الشرطة بتجار «الطربّاندو»، وأقاويل النسوة عن بعضهن، كنتُ أعرف الكثير، وأؤلف الكثير، وهي تسمع وحين أصمت تسألني:

ـ «والحمامجية؟».

أجيبها: «ماتت يا جدتي، ماتت!».

فتنتفض مذعورة من الموت:

«كيف ماتت يا بابني؟».

فأجيبها مخترعة موتاً يليق بها:

ــ «داخت في الحمام، فحملوها إلى المستشفى، لكنها لم تستيقظ، ماتت يا جدتي، ماتت».

ــ «متى حدث ذلك؟ لماذا لم تخبرني والدتك؟».

ــ «لأنها لم تعرف!».

ــ «وكيف عرفت أنت؟».

ــ «كنتُ قرب الحمام حين حملوها».

ثم أشفق عليها، حين أرى علامات الفزع على ملامحها ولكن لذة ما تنتابني فأزيدها ذعراً:

ــ «وعمي الحاج أيضاً مات».

فينتابها الذعر بشكل أقوى:

ــ «من عمك الحاج؟».

في «الزنقة» كل الرجال أعمام، وكل النساء خالات وكلنا خليط من الأقارب الذين لا قرابة بينهم.

ــ «عمي الحاج يا جدتي، جدُّ وهيبة صديقتي».

ينقطع نفسها وهي تردد: «مات هو الآخر.. يا لطيف... يا لطيف...».

ثم تدمع عيناها، فأشعر ببعض الذنب، فأخترع لها خبراً أخفَّ وقعاً على نفسها الضعيفة:

ـ «هل أخبرتك أن ابن عمي الطيّب تزوج؟».

فتهدأ كطفلة وتسأل:

ـ «أي واحد منهم؟».

ـ «موسى يا جدتي، الأحول».

ـ «الأحول؟ يا غُبني، ومن التعيسة التي أخذته؟».

ـ «سأعرف لك غداً».

وأقفز خارجة، لأقف مجدداً أمام الشباك.

وبعد لحظات يتناهى إلي صوت شخيرها، فأشعر أنني أحسنتُ صنعاً بتخديرها بكل أقاصيصي، وما يزيد نشوتي تلك أنها تنسى كل ما أخبرها به وتتقبل أكاذيبي القادمة بالحماس نفسها.

بعد الخامسة عشرة، تغير مذاق شارع «شوفالييه». أصبحتُ واحدة من نساء الشقوق، وكنتُ أحتار في تلك الازدواجية التي يعاملني بها والدي، و«إلياس» حيث كانا يمنعاني من الخروج من البيت بعد دوام الثانوية. ولأني ذكية وناجحة تحوّل البيت بالنسبة لي إلى جحيم. وتورطت في أحلام اليقظة لتصبح مشكلتي الكبرى، أحلم وأنا أدرس،

أحلم وأنا آكل،

أحلم وأنا أمشي، أقطع الطريق وأنا ساهية...

وأنجو من ألف حادث في اليوم.

أحلم.

أخترق الشبابيك التي أصبحت مغلقة بأحلامي، أخترق حراسة «إلياس» لي.

أخترق النظرات التي تلاحقني في الشارع.

أحلم ...

كجدتي صرت، أتقبل أكاذيبي على نفسي، وأعيش حياة منطلقة في مدينتي الفاضلة التي لا وجود لها.

* * *

ذهبت أيام جدتي مع الشارع الذي أحب، مع المدينة التي أحب، مع الرتابة التي أحب، مع الحياة التي بدت حلوة مقارنة مع التي أعيشها اليوم.

يعود «مود...» ثملاً كالعادة من الحانة المجاورة، يرتمي على الكنبة، وينام.

رائحة الويسكي تملأ الغرفة، منبعثة من أنفاسه، رائحة الذل تخنقني.

أحتمي بغرفتي. وأحاول أن أنسى.

قصة بعد قصة.

أكذوبة بعد أكذوبة.

والبناء يعلو، ويعلو، يحيط بي كقلعة عالية، كحصن منيع كحصن من ورق وحبر.

القصة في بدايتها... البطلة بحاجة إلى رجل قوي.

الورق يكذب...

الحياة لا تكذب!

* * *

أشتاق لأختي «شاهي»، وبيني وبين نفسي اليوم، صرت متأكدة أنها الأقوى، لأنها تتعايش مع أنوثتها بانسجام، لأنها تزوجت وأنجبت ولدين وبنتاً، وكوّنت عائلة، لأنها غير منزعجة مما هي فيه، وتبدو كل مشاكلها أمام حنكتها في حلّها هينة.

أشتاق لرؤيتها وسماع حديثها الذي يحوّل الحياة إلى معادلة بسيطة.

أشتاقها، لكنني أكثر من ذلك، أحتاج إليها.

أحتاج للجلوس إلى كل نساء العالم لأفهم كيف يبسطن الحياة، وكيف يعشنها دون أن يكترثن لما أكترث له أنا.

«مود...» الغريب، ووالدي، وأخي «إلياس»، وقبضة الحديد التي يخنقني بها النظام الأبوي الذي نعيش تحت رحمته.

أنا مجنونة حتماً ...

مجنونة لأنني أقدمت على زواج كهذا، ومجنونة لأني رغم فشلي الواضح في خوض التجربة إلى آخرها، أتشبث بـ «مود...»، ظناً مني أني سأصنع شيئاً في باريس، وسأخرج من رتابة الحياة القسنطينة في بيتنا في شارع «شوفالييه».

ولعلّي كنتُ سأضعف، وأحزم حقائبي وأعود إلى الجزائر، لولا تلك الحادثة التي غيّرت حياتي، حين هبّت النار في فرن جارتي اللبنانية ماري وسمعت صراخها فأسرعت إليها لأعرف ما الأمر، كانت تصرخ وهي خارجة من شقتها، مغطية وجهها بيديها، مذعورة وقد ظنّت أن النار قد شوّهت وجهها، والذي حدث أن النار التهمت رموشها وبعض شعرها، وأصيبت بحروق بسيطة بأصابعها.

يومها فقط تعرفت إلى ماري.

وماري عرّفتني إلى «إيس...».

و«إيس...» علّمني أن الدنيا كبيرة وواسعة، وأننا يجب أن نحتال عليها لنعيش، ولعلّه علّمني أكثر أن الرموز في الحقيقة هي من صناعة أوهامنا.

قلتُ لماري حين هدّأت من روعها:

ــ شكراً للنار لأنها عرّفتني إليك.

احتست معي كوب شاي مع عصير الليمون، وعادت إلى شقتها.

ماري عرّفتني إلى «إيس...» دون أن تعرف تماماً أنها قد دفعت بي إلى الجحيم.

منذ أول لقاء بيننا، شعرت أنه رجل مختلف عن كل الرجال. وبيني وبين نفسي، ذعرتُ من لمسة يده، من نظرة عينيه اللا مبالية، من شكل جسده المثير، قدمته لي ماري قائلة:

ــ احذري منه، إنه «نسونْجي» كبير!

ضحك... فضحكت عيناه، وبدت لحيته المرسومة بدقة، جميلة ومثيرة، وإذا بصوت ينطلق من أعماقه ويخترقني يقول:

ــ ستكونين لي ذات يوم.

تأملتُ رجولته المثيرة تلك، وأنا بعد تحت صدمة سلوكي الغريب ذاك ولم أقل شيئاً، سوى أني ابتسمت وابتلعت ملاحظة ماري كمزحة عابرة، فيما راحت تملي عليَّ قائمة من النصائح.

ــ لا تنجرفي نحو مثقف لبناني لمجرد أنه مثقف ولبناني، فهذه كذبة عربية كبيرة.

كانت ترمي بي نحو شباكه دون أن تدري، ودون أن تدري أضافت:

ــ أحذرك منذ الآن، إنه متزوج، ويخون زوجته كل يوم.

ضحكتُ ببراءة فتيات قسنطينة، وقلت لها:

ــ كأنك تتوقعين منذ البداية أنني سأغرم به؟

فقالت بثقة أدهشتني:

ــ كل اللواتي يتعرفن إليه يغرمن به.

لم ألمس قطعة الكاتو الكبيرة التي وضعتها أمامي في الصحن، ولم أتناول من فنجان الشاي غير شفة واحدة، إذ خطفتني أقاصيص ذلك الرجل وهو يتحدث بلهجة لبنانية متأنية، وأكثر ما جذبني إليه طريقته الخاصة في جعل كل شيء مأساوياً حوله.

ــ إنها الخدعة الأولى التي تنطلي على المرأة!

(قالت ماري وكأنها توجه الحديث إليّ).

ــ عفواً؟ (سألتها):

ــ ألَمْ تفهمي بعد؟

ــ لا، والله ...

ــ نحن العربيات نميل دائماً للمعطوبين عاطفياً، نحب أكثر الرجال المكسورين في الداخل، المنهارة مشاعرهم تحت سيل تجارب فاشلة.

قام «إيس...» واستأذن للخروج.

أمّا أنا فقد أطلت الحديث مع ماري، حتى صار الوقت متأخراً، وقبل أن أخرج من عندها قالت:

ــ ستحبينه، أنا متأكدة من ذلك، لكن كوني حذرة إنه رجل لا

تعني له النساء أكثر من متعة في الفراش.

خرجت من عندها وأنا شبه دائخة، فكيف تعرّفني على رجل يزورها بالصدفة وأنا عندها، وتضعني في هذا الموقف معه، وكأنني أنني تبحث عن رجل مسبقاً، بدا لي كلامها كله غير منطقي، وقد أقنعت نفسي أنها ربما شربت كأساً قبل أن أدخل عندها، وأنها حتماً كانت تهلوس.

لم أر «إيس...» بعدها عند ماري، بل التقينا معاً في جلسة فيها كثير من الأصدقاء، وكثير من اللامبالاة، شعرت خلالها أنه لم يكن يراني، وقد تناول بيرته الرابعة دون أن يتوقف عن المزاح والسخرية من كل العالم وكأنه الكائن الوحيد الذي يعرف الصح ويمارسه. ثم غادر قبل أن نغادر نحن.

لا أذكر أنني تعلقتُ به ذاك اليوم، إذ كان المساء مشحوناً بالشجن لدرجة نسيتُ فيها نفسي وأنا أراقب الناس من خلف الزجاج وهم يتحولون إلى أطياف تشبه أطياف المساء القسنطيني.

في الحقيقة بين قسنطينة وباريس فرق شاسع، لكن المطر ألقى بشباك الشبه بين الشوارع، وكان ذلك الشارع بالذات قطعة من «سان جان» لا غير، وكان «إيس...» وجهاً مألوفاً، كأنني عاشرته منذ ألف عام، وحين غادر شعرت ببعض الارتياح لأنني لم أقع في حبه بعد، لكن الصباح التالي كان يخبىء لي مفاجأة مغايرة لمقاييس التحضر للحب.

خرجت مستعجلة من شقتي هرباً من أن يستفيق «مود...» وتتعثر

مشاريعي، هربت من مزاجه الصباحي العكر، وصراخه الذي يجعل يومي معتماً، ورائحة العفن المنبعثة من كلامه.

هربت من أجل الهروب لا غير، ولم أعرف بعدها إلى أين أتوجه، فإذا به أمامي على بعد خطوات من محطة مترو «مابيون»، طويلاً بصلعته الجذابة وسمرته التي لها ألف معنى، ولحيته المغرية وجاذبيته الغريبة التي لا أفهم من أين تنبثق.

بشكل من الرومانسية كان المطر يتواطأ معه، خفيفاً كراقصة باليه تنقر الأرض نقرات حنونة برؤوس أصابعها تدعوني للطيران.

استوقفته وعرضتُ عليه أن نتقاسم مظلتي، ثم سألته:

ــ إلى أين أنت ذاهب؟

فأجاب بلامبالاته المثيرة:

ــ لا أدري، خرجت لئلا أتشاجر مع زوجتي.

ضحكتُ وقلتُ له:

ــ يبدو أننا خرجنا للسبب نفسه.

فقال مازحاً:

ــ هل لديكِ زوجة أنتِ أيضاً؟

ضحكت ولم أعلق، لكنه أردف:

ــ على علمي الأزواج دائماً ضحايا لزوجاتهم.

قال المطر شيئاً لم أفهمه، فتوقفت وتأملت «إيس...» قبل أن أقول له:

ــ هل تفهم لغة المطر؟

ــ أفهم كل اللغات إلّا لغة زوجتي.

ــ أنتَ مستاء جداً.

ــ المطر يجعلني سعيداً، إنه طقسي المفضل.

ــ إنه طقسي أنا أيضاً.

لعلّي في تلك الصبيحة المفاجئة أدركتُ معنى أن نهرب من زوج وننطلق مع رجل آخر، معنى أن نقترب من بوابة الخيانة ونقرعه خلسة بقلب يعلن ثورة، ومعنى أن نكون في عالم رجل وندخل عالم رجل آخر.

الرجال كالمجرات، لكل مجرة مناخ، ونظام، وأسرار، وهوىً.

في مقهى «دوماغو» بـ «بولفار سان جيرمان» جلسنا واحتسيتُ معه كوباً من الكابوتشينو الساخن كان أحلى كوب كابوتشينو شربته في حياتي.

مرّت ساعة...

ثم مرّت ساعتان...

ثم مرّر يداه على شفتي... ثم اقترب وقبّلني، أمام الملأ، أمام النادل الذي كان يقف أمامنا وفي يده فاتورة الحساب.

وضع شفتيه على شفتي، ثم أبعد وجهه عني قليلاً وتأملني كأنه ينتظر ردة فعلي، ولكنني كنت مذهولة، وجامدة، فأعاد الكرّة مرّة أخرى ولكنه أطبق شفتيه أكثر على شفتي.

وضع النادل الفاتورة على الطاولة وهو يبتسم ثم انصرف.

كانت شفتاه طريّتين، وشَعْرُ شاربيه ولحيته أيقظا كل حواسي ولم أفهم حتى لماذا انسجمتُ معه، ولماذا بادلته القبلة وكأنني «مُقَبِّلَةٌ» محترفة، ولماذا عبثت شفاهي كل ذلك العبث مع شفاهِه، ولماذا تذوقت دفء لسانه، وأحببت رائحة تبغه الصارخة بذكورته.

ـــ «إيس...» أيها المجنون، إنني امرأة متزوجة؟

همستُ له. فأغلق فمي بأصابعه، وأشار لي أن أسكت. في الخارج كان للمطر حديث آخر، ولهذا قبل أن نفترق قبّلته مرة أخرى، وعدتُ إلى البيت محمّلة برائحته وأنفاسه، ووقع شهوته، وأصبح من الصعب عليّ أن أعيش مجدداً بالإيقاع نفسه، إذ هناك شيء ما فقدته أو كسبته مع قبلته تلك، شيء كأنه أنا قبل الزواج، كأنه رجوع العمر إلى الوراء، أو كأنه ولادة ما. شيء صعب عليّ تفسيره ولكنه احتواني، وعشش في كل خلايا جسدي، وأصبح يسيطر على سلوكي اليومي.

قبلة «إيس...»...

كانت تلك أخطر المنعرجات في حياتي، أخطرها على الإطلاق قبل أن أتحول إلى امرأة أخرى تشبه سيلاً لمطر صيفي هائج لا يفرق بين

الحجارة والكائنات.

قبلة «إيس...»...

قبلة الصباح الماطر، والبرد الذي غامر من أجل حفنة من الدفء، والرضاب الذي سقى شتائل الشهوة وأيقظ كل شياطين الدنيا لإقامة حفلة تنكرية مجنونة في سهل مقفر.

قبلة «إيس...» واللعنة التي حلَّت على زواجي، وألقت بقيود الشهوة حيث الموتى، وألقت بي أبداً إلى النار.

كان الصباح لا يزال في أوله، وأنا أفكر في كل الذي حدث حين دقت ماري الباب، حين دقت على قلبي، حين توغلت حيث كل الزواريب الممنوعة، وتفحصت غرفي السرية في قلب طفح بالممنوعات.

ثم صاحت في وجهي:

ــ تذكري أنني نبهتك منه.

قلتُ لها وأنا شبه غائبة عن الكون:

ــ لماذا يعاملك كصديقة، ويعاملني كعاهرة؟ ضحكت وقالت:

ــ في قاموسه لا توجد عاهرات، هناك نساء للجنس وأخريات لهامش الحياة، وهذا تقسيم عادل بالنسبة له، في ظرف أربع وعشرين ساعة تحولت إلى عاشقة لعينة تنتظر إطلالة رجل لا توجد في قاموسه عاهرات.

في ظرف تلك الفترة القياسية، أصبحتُ امرأة مهووسة بشفاه ولحية رجل.

تلك الشفاه الشيطانية... شفاه «إيس...»، الشفاه التي حملتني إلى عالم لم أكن أعرفه إلّا متخيّلاً، وحوّلتني إلى جمرة تتوق إلى نفخة هواء...

«إيس...» تلك السماء العبوسة الملبدة بالغيوم، وذاك المطر الشبق الذي يغازل الكون، لم يكن أكثر من رجل، ولكنه في الوقت نفسه كان أكثر من رجل وهذا ما لم أفهمه.

* * *

في صبيحة داكنة أذكرها جيداً، تماديت في التبرج والتعطر، وقصدته وأنا أنبض فرحاً، وبين يديه تحولت إلى غيمة طائرة، حدث ذلك في مكتبه.

حدث كل شيء في مكتبه.

شلحتُ معطفي وسلمته شفتي ثم أمسكت يديه ومررتها تحت الكنزة، بالضبط جعلتهما تستقران على نهدي. أذكر جيداً طعم يديه، طعم أصابعه الخشنة، طعم لحيته، أذكر كيف تاق جسدي إليه.

أذكر رائحته، أذكر كل التفاصيل التي أفقدتني عقلي، وجعلتني أطلب المزيد. كان بودي أن أتمدد، وأسلمه جسدي قطعة قطعة، إذْ

لم يعد بإمكاني التماسك واقفة، فعانقته، ولكن يديه تراقصتا حولي، فَكَتا حمالة الصدر، فتحرّر نهداي وصار بودي أن أبحث عن صدره العاري، أن أصطدم به، أن أتحول إلى لبوءة شبقة، أن أنصهر تحت ثقله، أن أتوحّد معه، أن أصرخ وهو يخترقني أن ألهث من المتعة، أن تتقاطع أصواتنا عند الرعشة، وننتهي مبعثرين الواحد فوق الآخر، كان بودي...

ويداه تتسللان إلى الموضع الأكثر دفئاً، ولزوجة، أن أكون له وحده، أن يضغط على نهديّ أكثر، أن يؤلمني قليلاً ما بين الفخذين، لكن الأشياء لم تكن محضرة ليحدث كل ذلك.

إذ حدث الجزء الأخطر فقط.

لقد وقعت في شباكه، فيما قام ليرد على الهاتف حين رنَّ، وحين انقلب مزاجه فجأة، هبت عاصفة مفاجئة من عينيه، وإذا به يرتدي معطفه بسرعة، ويحمل حقيبته على ظهره، ويغادر دون أن يعتذر.

بعض الرجال تسكنهم سادية كهذه.

«إيس ...» كان من ذلك النوع، كان رجلاً مؤلماً فوق العادة، وفي داخله كمٌ هائل من السخرية من الآخرين. وحين خرج ذلك اليوم. وتركني في مكتبه، لاحظتُ أنه كتب على المدخل؛ عبارة تجعل زائره يشعر أنه غير مرغوب فيه مسبقاً «نرجو من زوارنا الكرام عدم الإزعاج».

فيما عبارة أخرى تؤكد ذلك، وضعها تحت زجاج مكتبه، تقول:

«بعض الأشخاص غير مرغوب فيهم أن يجلسوا هنا»، لم أفكر في تلك العبارات كثيراً، مزقت الأولى، وسحبت الثانية بصعوبة، جعلكتها ورميتها على مكتبه، وخرجت.

يومها لم أعد إلى البيت باكراً.

كانت خلايا جسدي ترقص من النشوة، إذ كنتُ أجهل تماماً أن ذلك الرجل نفسه سيجعلني بعد أيام قليلة مكتئبة مثله، وسادية مثله، وغير عابئة بما يحدث في الكون.

بعد أيام ...

بعد أوهام احتلتني ونصّبت الرايات على مرتفعات قلبي... ظننتني وجدتُ رجل العمر فيما خيبة أخرى ــ ليس أكثر ــ كانت في انتظاري.

عند ماري دائماً، كُنّا نلتقي، وعندها تعرفتُ إلى شرف لكنني لست مستعدة الآن لأحكي عنه.

مرّ الصباح ثقيلاً، ومُرّاً كعادة كل صباحات «مود...» الملوثة استيقظ مزمجراً ولعن اليوم الذي رآني فيه، تشاجرنا لسبب لم أفهمه، فقد طلب مني أن أحضر له «النيسكافيه»، ففعلت، ولم أفهم بالفعل ما الذي أزعجه، إذ أمسك بالكوب وقذف به نحو الحائط.

احتميت بغرفتي ولم أخرج إلّا حين دخل ليغيّر ثيابه، ثم خرج، فهرعت إلى ماري التي أصبحت تعرف الكثير عني، وعن علاقتي

بـ «مود...» وعلاقتي بـ «إيس...» وماضيَّ المرتبك، وتفاصيل المجتمع الجزائري المفبرك كعقدة.

قالت لي وهي تحضر القهوة:

ـ لِمَ لا تبحثين عن عمل يلهيك عن جنون زوجك؟

ـ لم أفكر بالأمر (أجبتها).

ـ يبدو لي أنك لا تفكرين بالمرّة.

قالت لي ذلك ووضعت ملعقتين من البن في الركوة ثم أردفت:

ـ أو عودي إلى الجزائر، وطلّقيه.

ذهلت:

ـ في الجزائر المطلّقة تعيش تحت النعال.

مضى بعض الوقت ونحن صامتتان، وحين أنهت تحضير القهوة وضعت الركوة على الطاولة وفنجانين، ثم أشعلت سيجارة سحبت منها نفساً عميقاً ونفثت دخانه نحو الأعلى ثم قالت:

ـ يجب أن تتعلم المرأة كيف تضع المجتمع كله تحت نعليها وإلاّ «ما يمشي الحال».

ـ أنتِ تحلمين!

ـ بس يا «باني» أنتِ في باريس، في زمن العولمة والتحضر.

تحدثنا عن «مود...» وعن «إيس...» وعن كل رجال الدنيا.

ماري كانت فتاة رائعة، ناضجة، وقوية، ومتحررة من كل القيود.

وحين تمشي، يبدو المجتمع مدهوساً بقدميها فعلاً. كانت بالضبط النموذج الذي حلمتُ أن أكونه... ولكن..

ــ صار يجب أن أخرج، (قالت):

قمتُ لأخرج، فأردفت:

ــ السهرة عندي الليلة، إنه عيد ميلاد «إيس...».

سألتها:

ــ هل أفهم أني مدعوة؟

فأجابت:

ــ طبعاً، وسأعرفك على مجانين العالم العربي كله.

ــ أكثر جنوناً من «إيس ...»؟

ضحكت ولم تجب!

* * *

شارع «مونبرناس» في السادسة مساءً، تحت قبعة سوداء من الغيوم، يبدو رجلاً مشكوكاً في أمره، الريح تهب كالموسيقى، وبقع الماء في الشارع أغنية مبعثرة.

بين المارة كان سهلاً تمييز الوجوه القادمة من الشرق. العرب يحبون هذا الشارع.

أمّا أنا فقد كنتُ أجيئه بحثاً عنه.

قصدت «la coupole» متوقعة أن يكون هناك غاطساً في قهوته المسائية، إن لم يكن في كأس مبكرة تتلقف حزنه.

كان جالساً في الزاوية، قرب الشرفة؛ عنواناً كبيراً للحب.

وكنتُ الفاصلة الضائعة بين الجمل والصمت.

من فرط الحب شعرت بقدميّ تنبضان.

ــ لماذا أنتَ وحيد؟

ــ لماذا أنتِ هنا؟

تعوّد أن تتعقبه النساء، السؤال جاء منساباً من بين شفتيه كعرض متكرر لمسرحية ساخرة.

لم أجبه، تقاطعت الأسئلة وخمدت متوحدة بالصمت.

أنا امرأة لا تحسن الكلام.

سحبتُ كرسياً وجلستُ بقربه.

توقف المساء عند حدود السادسة.

في السادس من شباط/ فبراير وجب على الوقت أن يتعثر قليلاً بالماضي.

ــ في مثل هذا اليوم سنة ١٩٢٨ التقت «إيلزا تريولي» و«لويس أراغون» للمرة الأولى هنا... على هذه الشرفة.

ابتسم دون أن يقول شيئاً.

أنا قلت:

ـ كانت السادسة مساءً حين التقيا.

نظر إلى ساعته، ووضع القلم جانباً.

واصلتُ:

ـ في السادس من شباط/ فبراير ولد شاعر عربي في بيروت اسمه «إيس...».

انفجر ضاحكاً وهو يدير رأسه نحو الشرفة:

تعودين دائماً إلى نقطة البداية.

ـ أجمل ما في الحب بدايته. كل سنة وأنت بخير.

قال:

ـ شكراً.

وأشعل سيجارة:

ـ عليك أن تصدقي أنني لستُ الكائن الذي تتوقعين. اليوم التواريخ مفرغة من المعنى... ومن الحب.

قاطعته:

ـ لماذا لا تصدق أن للأمكنة سلطتها؛ «بيكاسو» كان هنا، و«مايكوفسكي» و«سارتر» و«بوفوار» و«ميللر» وكل الذين كانوا يلتقون هنا في الأماسي الباردة التي تتدثر بالشعر، الشعر الذي جرّ

قدميك إلى هنا، والحب هو الذي جرّني إليك.

كان عيد ميلاده الأربعين، لقد دخل السن التي تجعل النساء يذبلن تحت قدميه.

كنتُ أذبل.

الغيوم في حيرة، الشرفة تحتفي بذكرى «إيلزا» و«أراغون» أما «إيس...» فقد كان يدخن ويسخر ويبتسم.

القلم جانباً...

الشعر في صفحته الأولى...

ــ ماذا كتبتَ؟ (سألته).

أجاب:

ــ لا شيء ذا أهمية.

امتدت الأمسية نحو هدوء أكثر، ألقى المطر قصيدته «مونبرناس» بقبعة من الرعود تحوّل إلى راقص مجنون. أنا وهو في فضاء يشغله الوهم والأرواح، اقتربت منه أردتُ أن أقبله.

أبعد وجهه عني، وضحكت عيناه على اندفاعي.

كان الوقت قد تأخر بالنسبة لي، ووجب أن أغادر قبل أن يبتلعني الصمت.

صافحتُه وغادرت.

القُبلة ظلت معلقة تتأمل الشعر في صفحته الأولى. «مونبرناس» في السابعة مساء تجاوز كل إمكانات اللغة، الأرصفة تلمع، المطر شبق، الحكايات لا تكف عن الثرثرة. «إيلزا» و«أراغون» كانا هنا. وكل شيء كان يدور في فلك الحب سرًّا.

لم أكن أعرف تفاصيل الشارع، ولكنني كنتُ أعرف جيداً أن «إيلزا» غادرت قبل «أراغون» باثنتي عشرة سنة، وكان صعباً عليه أن يعيش بدونها فدفنها في باحة الطاحونة القديمة التي حوّلها إلى بيت وأهداها لها. دفنها قرب قلبه.

ووضع قرب قبرها مسجلاً تنبعث منه موسيقى «باخ» ليل نهار. كان قد وعدها أن يحيطها بالموسيقى إذا ما ماتت قبله، «باخ» لم يتوقف إلى اليوم عن العزف.

صار يعزف لهما معاً، وهما يتوسدان الحب في قبر مشترك.

أربعون سنة ما كانت كافية ليعيشا تفاصيل الحب كله... أربعون سنة!

صرح من الحب... قلعة ذات أسوار عالية من الأشواق... مدينة بأكملها تتأسس على ركائز من الحب والقصائد في باحة طاحونة عجوز تشهد على أن الحب ممكن أيضاً.

«مونبرناس» يئن بموسيقى «الراي».

والمطر لا يكف عن الهطول، لقد فاتني أن أحمل مظلتي حين خرجت.

فاتتني القُبلة التي ظلت عالقة هناك...

الحب يتمايل...

الشعر يتمايل...

«لا كو ﷺول» صارت خلفي بمئات الخطوات. البلل الذي تسرّب إلى جسدي حوّلني إلى امرأة شبقة، وولّد لديّ رغبة في العناق.

«إيس...» كان ينطفيء على ورقه، أمّا أنا فقد كانت «واه»، «الراي» تتوغلني كمآتم.

بحّة «دحمان الحراشي» تهجم عليّ فجأة من مكان قريب:

«يـا الـرايـح ويـن مـسـافـر
تـروح تـعـيـا وتـولـي
شـعـال مـن الـغـافـلـين
رامـر قـبـلـك وقـبـلـي»

وعبارة قديمة لمالك حدّاد تطوقني من كل الجهات:

«من الغباء أن نموت بعيداً عن قبرنا».

ولكن باريس جميلة، ومتوهجة في الوقت الذي تنام فيه قسنطينة في حضن رجل شرس. بلا قلب، بلا مخ، وبلا صوت. وتسرق

أنفاسها خلسة من مساء يختنق. وتقول الشعر الذي يجعلنا نبكي، لا الشعر الذي تقوله باريس في صالونات تضج بالتصفيق.

في تلك اللحظة ما كنتُ بحاجة إلى شيء غير رجل يعانقني، أغرق في رائحته، ثم أفتح عيني لأجده «إيس..»، في السادس من شباط/ فبراير مات «تشايكوفسكي» ليصمت الكون «هناك دقيقة صمت مرفوعة لهذا التاريخ».

«لقد ولدت في هذا اليوم يا «إيس..»».

* * *

أتعبتني الحمى حين استيقظت باكراً.

كانت الغرفة تفوح برائحة الثياب المبللة التي رميتها قرب سريري.

«مود...» لم يعد إلى البيت كعادته.

جسدي ملتهب، فراشي ملتهب، عيناي تدمعان... منظري مخيف في المرآة!

أخذت حبتين «بنادول» ومكثتُ في فراشي. نمت بعض ساعة، واستيقظت ثانية على وقع خطوات «مود...». عاد منتشياً يغني بلسان مثقل أغنية لفضيلة الجزائرية. واضح أن ليلته لم تكن خالية من «اللحم الأبيض المتوسط» على رأيه.

لم أهتم...

دفنت رأسي في المخدة واستسلمت مرة أخرى للنوم.

كان جسدي مفككاً. وقد حلمت بيد باردة تمر على بعض المواضع.

ثم استيقظت مرة أخرى على صوت «مود...» يكلم فتاته على الهاتف، تناهى لي صوته من الحمام وهو يقول لها: «نامي الآن يا قطتي الصغيرة، غداً ينتظرنا يوم طويل». تمدَّد بعدها بقربي ككومة من الأقذار، تفوح منه رائحة الجنس إلى حدِّ الغثيان.

قمتُ من الفراش، وخرجتُ من الغرفة. ووقفت طويلاً أمام نافذة المطبخ لأنتبه أنه لم يعد إلى البيت بسيارته. المحتمل أن «القطة الصغيرة» هي التي أوصلته، وأنها لا تقطن قريباً من هنا وربما لهذا ظل مستيقظاً ثم لاحقها بهاتفه ليطمئن أنها وصلت إلى بيتها سالمة. من النافذة كان اليوم الباريسي يبدأ رمادياً، يتشكل كذرة ثلج، باهت، ببنايات لا تقول شيئاً.

ما أكبر الفرق بين باريس وهي ترتدي ليلها المدهش، وبين ثوبها النهاري الذي لا لون له.

حزني على اليوم القسنطيني الذي تعلنه المآذن.

حزني على رائحة الخبز الطازج وهي تمنح لتلك الأصباح علامة كاملة.

فجأة صار الوقت كما هناك.

وشارع «شوفالييه» يحتل الواجهة.

الوجوه متعبة، ونحيلة، متعبة وعابسة.

قسنطينة لا تبتسم في الصباح، تواجهك وكأنها تعاقبك على ساعات نومك، وتقضم بقايا أحلامك لتمنحك يوماً من الشجن.

* * *

غير الأنوثة المُرّة، لا شيء كان يرافقني في تلك الشوارع التي لا تمل من تعذيبي. من مقهى «البوسفور» إلى «فندق الزيت» المسافة ليست طويلة، الوجع هو الذي كان يأخذ أشكالاً مختلفة.

كنتُ أمرُّ على عمي محيي الدين، أقف على الرصيف قبالة باب المقهى، وأنتظر أن يلتفت إليّ، ومتى التفت ترَكَ ما في يديه، وانطلقنا معاً إلى «فَنْدَقْ الزيت» حيث غرفته التعيسة في الطابق الأول حيث الكمنجات وحكايات السهرات الماجنة، والحب الذي طيَّرَ مخه، والسُكْر، والحشيش، وأقاصيص ألف ليلة، وعذابه المقيت مع «محبوبة» و ...وأشياء أخرى كثيرة سيأتي ذكرها فيما بعد.

علاقتي بالعم محيي الدين بدأت باكرة، حين كنتُ طفلة، أنجذب بشكل غير مفهوم نحو آلاته الموسيقية، وحياته الغريبة المنحصرة بين «الفَنْدَق»(*) والأعراس، وماخور «رَحْبَةُ الجْمالْ».

ربما كان سيىء السمعة، ولم يكن منضبطاً مثل والدي الشرطي، ولكنه كتلة من المشاعر، ولعلّ رهافة حسّه هي التي جعلته يتفطن لميلي للموسيقى وتعلقي بالكمنجات فقرّرَ أن يعلمني العزف على

(*) الفندَق: اسم حي في قسنطينة.

الكمنجة، ثم علّمني «النوبات» الست والعشرين للمالوف، وقد أخذ مني ذلك سنوات لكن ما أدهش عمي هو إتقاني للنوبة بكل مراحلها بسرعة.

ولعلّ والدي خاف عليّ كثيراً أن أنجرف نحو عالم الفن المشبوه، حين علم متأخراً أنني كنتُ أزوره لأتتلمذ على يديه. وكثيراً ما حاول «إلياس» أخي أن يمنعني من الذهاب إليه، ولكنه انشغل عني فيما بعد حين بدأ بالتدرب بانتظام على «الملاكمة».

لماذا أتذكر كل ذلك اليوم؟

لماذا تجتاحني قسنطينة بنوبة قاتمة من الحزن؟

لماذا أستحضر الموتى، وأنا في «قبلة ماري».

فأتذكر تارة جدتي، وتارة عمي محيي الدين الذي اغتيل في شتاء ١٩٩٥ في غرفته في «فُنْدَق الزيت». أذكر ما حدث جيداً، إذْ حَدَّثني عن رسالة وصلته من أحدهم تطالبه بدفع «الجزية» لأمير المسلمين لقاء الإبقاء على حياته.

ــ هل هذه مزحة؟ (قال):

ورمى بالورقة في زاوية من زوايا غرفته.

بعدها بيومين طرق شاب ملتح بابه ليلاً وطالبه بالجزية.

فهم حينها أن ما حدث ليس بمزحة.

قال له ساخراً:

ــ هل تظن أن الفن في هذه الأيام يوفر لي الخبز ليوفر لك الجزية؟

ـ لا أظن (أجابه الشابه الملتحي).

ـ إذن أغرب عن وجهي.

لكن الشاب لم يذهب، قال له بلهجة باردة:

ـ على هذا الأساس أنت كافر، وتستحق الموت.

وأخرج مسدساً تحت قميصه وأفرغ ثلاث رصاصات في صدره وفرّ هارباً.

لم يمت عمي للتو، ظل سبع ساعات يقاوم الموت وفجراً مات.

«محبوبة» ترملت، وأنا تيتّمت.

ولكني ورثت منه كل تمرده. هو الذي أخرج «محبوبة» من الماخور وتزوجها، وعاش الحياة بخمرتها وحشيشها وأنغامها، صار مستقراً في دمي.

محيي الدين بسطانجي... لك هذه الصبيحة كما شاء الله.

* * *

أمقت باريس... أمقت المدن التي تجعل الواحد حزيناً أو سعيداً لأن الأسباب واضحة ومفهومة. أمقت الكائنات الزجاجية التي تقيم فيها.

أمقتُ «مود...».

في قسنطينة الشوارع أسباب للحزن، اللغة مفروشة على الأرصفة، الورد، أزهار البَلّيري، أعواد السواك، الكحل، علب الياسمين، الذهب المغشوش، السلع القادمة من وراء البحر، كل شيء معروض للبيع... حتى عيون الفقراء، حتى سمرتهم التي لها ألف معنى، الدراما في أوجها دائماً... العرض مجاناً كل يوم.

المباني تنبض حزناً، الوجوه، العيون، الشفاه، الشرفات والنوافذ.

كل شيء حولك حزين وغامض.

كل شيء غامض ومبتسم.

تحار وأنت تتأمل كل شيء، أَحزين أنت أم سعيد!؟ إذ فقط في قسنطينة أنت سعيد وحزين للأسباب نفسها حتى اللغة... حتى المألوف... حتى الموت كلها لها الإيقاع نفسه، والأسباب نفسها.

* * *

قبل أن يموت بيوم واحد، جاءنا حاملاً كمنجته المفضلة. قبّلنا نحن البنات كما يُحب، قبلة قبلة على الجبين ومازح والدتي كما يفعل دائماً:

ــ أما زلت تتعذبين مع ذلك الشرطي؟

كانت تمطر، وشارع «شوفالييه» حلّت عليه السكينة ما بعد العصر.

تقدّم مني وقدّم لي كمنجته ومازحني:

ــ عليك أن تخفيها في مكان آمن مخافة أن يجدها الشرطي

ويكسرها على دماغك؟

اندهشت...

وانتابني الخوف والفرح معاً وأنا أمسكها بيدي:

ـ كيف تخليت عنها؟

أجابني مبتسماً:

ـ أنا لا أتخلى عنها، بل أأتمنك عليها.

ـ هل أنت مسافر؟ (سألت):

فأجاب مازحاً مرة أخرى بمثل شعبي:

ـ لا لن أغادر «هنا يموت قاسي».

ضحكت والدتي وهي تقدم له القهوة قائلة:

ـ ستموت إذن؟

وفيما كان يفكر في إجابة ما، أخذتُ الكمنجة وعزفت جزءاً صغيرةً من «نَقْلاب ـ يا باهي الجمال»[1] ثم أعدتها إلى غطائها وسارعت إلى إخفائها.

يومها فقط انتبهتُ كم أن عمي محيي الدين أصبح عجوزاً، وكم هو نحيل... كان عجوزاً في الخمسين!

* * *

(١) نوبة زيدان وهي إحدى نوبات المالوف.

كان بودي أن أعزف.

لكن باريس تقف أمام مشاعرك بعقرب ساعة، فحتى العزف في ساعة باكرة مثل هذه لا يجوز.

هذا هو الفرق:

قسنطينة تستوعب حزنك في كل الأوقات، يمكنك أن تعزف حتى فجراً.

في صبيحة كهذه، كنا نبكي عمي محيي الدين الذي فارق الحياة متأثراً بجراحه في مستشفى قسنطينة الجامعي. اجتمعت عائلة «بسطانجي» بغنيّها وفقيرها لتوديعه ويوم جنازته حضرت كل شخصيات قسنطينة المهمة ومُنح وساماً قبل أن يوارى التراب.

يومها عرف والدي وغيره من أثرياء عائلة «بسطانجي» أن ذلك المنبوذ الذي كان يعيش في «فَنْدَق الزيت» أهم منهم جميعاً.

لا مجال لمقاومة الرغبة في العزف.

أخرجت «مفضلة» عمي محيي الدين، وعزفت «انْقْلاَبْ» «قلبي ابتلى»[1].

وفيما كنتُ أعزف وأبكي دق جرس الباب. تذمرت...

---

(١) نوبة يسيكا وهي إحدى نوبات المالوف.

قمت وأنا أفكر في اعتذار يتقبله الجار المنزعج من عزفي في ذلك الوقت المبكر.

فتحتُ الباب، فإذا بعينين مألوفتين تبتسمان. ظل صامتاً كأنما أضاع ما في جعبته من كلام، فبادرته أنا بالكلام:

ــ أنا آسفة... لقد توقفت عن العزف.

كان متوسط الطول، بشعر أسود طويل يلامس الكتفين، وبشرة ذات بياض أعرفه، وملامح تتوغل مباشرة إلى القلب.

قال بلهجة قسنطينية مفاجئة:

ــ أنتِ جزائرية، وتحديداً من قسنطينة؟

كان يجب أن أبتسم؛ قسنطينة كلها كانت في عينيه. مدَّ يده، مددت يدي وتصافحنا، فبادرني وهو ماسك يدي:

ــ أنتِ محمومة!

ــ قليلاً ... (أجبتُ).

تراجع خطوة إلى الخلف وهو يقدم لي المفاجأة الثانية:

ــ توفيق بسطانجي، أنا جارك في الطابق الذي فوق.

كان يجب أن أبتسم مرة أخرى، مرددة كلمة «بسطانجي»:

ــ يا للصدف وأنا باني بسطانجي.

فاقت دهشته دهشتي وهو يقول:

ـ إننا من عائلة واحدة إذن؟

تلك هدية عمي لي في تلك الصبيحة غير المتوقعة. وذاك كان مساراً آخر في حياتي يخرج من متاهة «مرد...» و«إيس...» و«شرف» وخياناتي الصغيرة التي لا معنى لها.

* * *

سنة من الإقامة في باريس.

سنة من الحياة على زورق تائه.

ـ أكنت تقطن هنا من قبل؟

ـ لا كنتُ في مارسيليا بحكم عملي أستاذاً في كونسرفاتوار مارسيليا.

ـ ومنذ متى وأنت في باريس؟

ـ منذ ما يقارب الستة أشهر.

ـ أنا ما أحببتُ باريس أبداً.

ـ إننا نكره الأماكن التي لا أصدقاء لنا فيها.

ـ عادة أرتاح مع وحدتي..

ـ عادة نرتاح مع وحدتنا الوهمية، المحاطة بوسطنا المألوف.

* * *

أحياناً حين تكون أيامي مفرغة أهرب للنوم، وأحياناً أستيقظ مع

«مود..» محاولة التحدُّث معه لكسر الصمت الذي بيننا، لخلق شيء مشترك بيننا ولكنني كنتُ أفشل، فما بيني وبينه لم يكن فارق عمر فقط. أسأله وهو يتناول «النيسكافيه» صباحاً:

ــ ألا تشتاق لقسنطينة؟

فيجيبني بصيغة ترد إليَّ سؤالي:

ــ يمكنك أن تسافري إن اشتقت إلى أهلك.

أصمت. فالشوق إلى الأهل شبيه ببركة معكرة. أنا أشتاق إلى المدينة، إلى مناظرها، وحركتها وأنفاسها وروحها. وربما أشتاق كثيراً إلى «شاهي» أحتاج إلى تعرية نفسي أمامها، وتعرية «مود...» الميغري[1] الذي تزوجت.

بالتأكيد سأخبرها كيف ضاجعني من الدبر، وكيف أُصبت بعطب في مؤخرتي لهذا السبب، وأصبح عذابي الأكبر دخولي إلى الحمام لقضاء حاجتي. في كل مرة كانت مؤخرتي تتمزق وتنزف.

الحب لا يمارس إلّا في موضعه.

سأحكي لـ «شاهي» كيف يستمني أمام الأفلام البورنوغرافية...

بالتأكيد سأحكي لها عن تقززي منه، وعن الكائن البارد الذي يسكنني كلما رأيته عارياً، وعن شعوري بالغثيان كلما رأيت قضيبه، سأروي لها كيف أرادني أن ألعقه وكيف تقيأت أمعائي حين

(١) المهاجر.

لفحتني رائحة البول وتذوقتُ حموضته.

سأتكلم، ولن أسكت، ما عاد الزمن زمناً للصمت سأحكي لها عن «إيس...»، عن طعم قبلته، عن رغبتي في امتصاصه والانغماس في رائحته..

أوه ... ستقول عني أنني أصبحتُ عاهرة.

ستقول أنني دُنست!

لا ... لا يمكنني أن أخبرها أنني أمقت «مرد...» وأشتهي «إيس...»، وأنني قبلتُ «شرف» في المصعد حين خرجنا من عند ماري ذات ليلة، ولم يكن لقبلته أي مفعول عليّ.

قَبّلْتُهُ وفي اللحظة نفسها نسيتُ ذلك، فعدت إلى البيت مجردة من أي ذكرى.

لا يمكن طبعاً أن أجرؤ وأخبرها أن القبلة المستعجلة تشبه إلى حدٍّ ما ابتلاع حبة الدواء.

وأن الذي يريد أن يقبّل امرأة ويقلب حياتها رأساً على عقب عليه أن يدغدغ شفاهها بشفاهه، عليه أن يكون هادئاً وبطيئاً ويقول شيئاً ما بين اللمسة واللمسة تماماً كما فعل معي «إيس...».

وعليه أن يروض لسانه على أداء الرقصة ذاتها، رقصة كاليوغا فيها تأمل وتركيز.

قبلة كالصلاة فيها سجدة وخشوع وابتهال لا ينتهي. لا قبلة «شرف» بمذاق التبغ والقهوة بلسان منتصب كأنه عسكري مبتدىء يقف أمام رئيسه.

لا قبلة «مود» قبلة الشفاه المغلقة التي تشبه تابوتاً فيه جثمان.

قد أكذب، وأخترع قصة تناسب قبلة «إيس...» لأرويها لـ «شاهي». لي فضول أن أعرف كيف تعيش مع زوجها وكيف تواصل حياتها الجنسية معه رغم أنها أنجبت معه ثلاثة أطفال.

لي فضول أن أعرف كيف أنجبت والدتي هذا الكم الهائل من البنات، كيف تطيق الشرطي وهو يضاجعها بقسوته.

لي فضول أن أعرف كيف يفعل ذلك ليلاً وكيف يتحول في النهار إلى رجل آخر بلا قلب، بلا عواطف، بلا شهوة، بلا غرائز، وكيف ينبت ذلك الحاجز الخفي بينه وبين والدتي فيناديها «يا مخلوقة» أو يا امْرَا»، كيف يتعايش مع ازدواجيته تلك، وكيف يوهمنا أن الجنس عيب، ومشتقات الجنس عيب، وكلمة «حبيبي» التي يرددها عبد الحليم عيب أيضاً.

كيف ... كيف .... كيف؟

لا أفهم ازدواجية نساء الزنقة ورجالها:

لا أفهم كيف يكونون في النهار «مخلوقاً» و«مخلوقة» وكيف يشتهيان بعضهما في الليل؟

ربما لـ «شاهي» بعض الأجوبة، هي التي كانت تجالس النساء المتزوجات، وتتحدث معهن في كل المحظورات حتى قبل أن تتزوج.

ربما ...

فأنا أعرف الجنس عند «مورافيا» أو عند «پروست»، أو عند «فلوبير»، وهؤلاء لم يعرفوا أبداً أسرار الزنقة، ولا أسرار النساء المحجبات، ولا الخجل، ولا الحياء، ولا السياط الخفية التي تهوي على مواقع الشهوة كلما تحركت.

لعلَّ «مود...» لاحظ شرودي المفاجيء لذلك تأفف وقام.

أمّا أنا فقد أغمضت عيني، وتركت الصمت يحملني بأجنحته إلى شارع «شوفالييه»... فإذا برائحة الحمّص تملأ المكان، والصبيحة لا تزال داكنة، وأنا أبحث عن الهرة «عقيق» بين الزوايا، وإذا باللهاث يملأ المكان. لهاث... ورائحة حمص، وآهات، ورجاء أنثوي رقيق:

ــ هيا أدخله، أطفيء ناري.

ــ افتحي رجليك أكثر.

الصوتُ الرجالي ليس غريباً عليّ.

اللهاث يزداد، لهيب النار يكتسح المكان، رائحة الحمص، ووقع عصا تقترب.

فتحتُ عيني وفمي، الزاوية داكنة، كومة رجل يعلو امرأة:

ـ ... !

تجمدت رجلاي.

العصا تقترب، المرأة تطلب أكثر، الكومة الرجالية تلهث تعلو وتهبط.

العصا صارت في ظهري.

ـ ماذا تفعلين هنا يا بنت الكلب؟

استدرت فزعة وصرخت وجه الشيخ، عبد الباقي بلحيته البيضاء كان مضيئاً ومخيفاً. هوت عصاه على كتفي، فأطلقت ساقيّ للريح.

في اليوم التالي تردَّد في الزنقة كلام كثير عن عباس الطباخ والمرأة التي لم يعرفها أحد والتي ضاجعها في زاوية الشارع فجراً.

تجمع سكان الزنقة مع الشيخ عبد الباقي وقرروا طرد عباس.

«عقيق» كانت نائمة قرب المدفأة ولم تعبأ بصدمتي الأولى في الجنس.

* * *

في اليوم نفسه خرجتُ أنا وماري حيث عرفتني إلى أمل والجد موريس، اشترينا بعض اللوازم، ثم عدنا إلى البيت، ومن هناك هاتفتُ «إيس...» و«شرف» وباقي الرفاق لنتأكد من حضورهم في

موعدهم الأسبوعي ليلعبوا الورق.

طبعاً لا تحضر شيئاً للجلسة سوى بعض الخيار والجزر وبزورات من لبنان، أمّا الويسكي فهو اختصاص «إيس...» والبقية كل يحضر ما يريد.

حاولت ماري أن تعلمني لعب الورق، وشرب النبيذ، لكن لا هذا ولا ذاك تقبلته، فطعم النبيذ كطعم ذكر «مود...» أما الورق فلم يكن هوايتي.

بالنسبة لـ «مود...» ماري ليست أكثر من عاهرة.

بالنسبة لـ «توفيق» ماري جارة لطيفة وعازفة بيانو من الطراز الرفيع.

بالنسبة لي، ماري مثل العم محيي الدين متمردة وطائشة وتحب الفن والحياة.

في ذلك اليوم، حين جاء الجميع وبدأ صخبهم يملأ البيت دخلتُ المطبخ لأحضر شيئاً، فإذا بـ «إيس...» يطوقني من الخلف وأذكر وأنا شبه غائبة عن الكون بين يديه كيف فاجأتنا «ميسم»، وكيف وقفت مدهوشة تتأمله ثم صفعته وخرجت.

منذ ذلك اليوم شيء ما انكسر بيني وبين «إيس...» وشيء ما نما بيني وبين «ميسم» تحوّل مع الأيام إلى صداقة متينة.

«مود...» ليلتها أصيب بنوبة غضب لأنني تأخرتُ عند ماري إلى العاشرة ليلاً، ولأنه عاد باكراً على غير عادته، الشيء الذي لم

أتوقعه حين فتحتُ الباب، فاستقبلني بصفعة أوقعتني أرضاً، ثم تمادى في ضربي، وكانت تلك أول مرة يكون فيها عنيفاً معي إلى تلك الدرجة.

كانت ليلة خرساء... بلا صوت... بلا نفس... بلا احتجاج!

* * *

لم أستطع فتح عيني، ولا تحريك يدي، ولا قدمي، كنتُ بالمختصر المفيد ميتة.

ناديت: «شاهي» بصوت مثقل ومتقطع، وإذا بصوت توفيق يصلني مبللاً كمطر ربيعي:

ـ سلامتك يا ابنة عمي.

كان بودي أن أبكي إذ كنت بحاجة إلى «شاهي»، هي التي قامت بدور الأم الحقيقي معي، ولكن الدموع خانتني، والكلمات خانتني، فقلت شيئاً غير مفهوم ثم سكتُّ حين شعرت بأصابع توفيق تلامس شفتي.

ساعتها لم أفكر في شيء، عرفت فقط أنه يريدني أن أصمت، وأنام، فنمت.

في اليوم التالي فتحت عيني، وأصبت بصدمة حين رأيت وجهي متورماً ملوناً بالكدمات.

في اليوم الذي بعده أصبحتُ قادرة على الوقوف.

وبعد أيام أخرى كنتُ في البيت.

* * *

في مخفر الشرطة هزَّ الضابط كتفيه وقال بسخرية:

ــ أوه ... النساء العربيات!

قال ذلك حين قلتُ له إنني متنازلة عن حقي.

ثم التفت إلى توفيق وسأله:

ــ هل أنتَ عشيقها؟

فردَّ توفيق مبتسماً:

ــ للأسف لا، إنها قريبتي.

قال الضابط بسخرية أكثر لذاعة:

ــ اسمح لي أن أقول لك أن قريبتك مغفلة.

ماري قالت ذلك عني أيضاً حين زارتني هي وشرف وميسم، أما «إيس...» فلم يسأل عني قط.

في بيت «مرد...» بدا لي كل شيء يحترق، وبدت لي نفسي عروساً من القش طالها الحريق أيضاً.

لم أفهم لماذا لم أطلب الطلاق، ولم أفهم لماذا لم يطلقني «مرد...» من تلقاء نفسه، ولماذا نُصِرُّ على تحنيط العلاقة التي بيننا وإبقائها رغم أنها ماتت بالفعل.

على حافة جبيني أثر صغير لأحد جراحي.

صار من الصعب أن أنسى كل الذي حدث.

* * *

ألتقي «إيس...» أحياناً عند ماري، لا يلقي التحية حتى عليّ، لم أفهم سلوكه، ولكني فهمتُ أنه كان على علاقة مع ميسم علاقة جسدية محضة، إذ فيما بعد فهمتُ منها أنها أحبّته ولكنه كان يصارحها دائماً أنه لا يريد حباً... وهو الكلام نفسه الذي قاله لي ذات مرة في مكتبه.

هل كان يحتاج إلى النساء فقط ليكتب قصائده؟

ما زلت أسأل نفسي هذا السؤال حين علمتُ من ماري أنه هجر زوجته ويقيم مع امرأة فرنسية، ثم عاد إلى زوجته بعد فترة، وسافرا إلى بيروت لقضاء عيد الفصح هناك.

لم أره بعد ذلك، إذ أصبحت أتفادى رؤيته، وأتفادى زيارة ماري مساءً حتى لا أصادفه عندها، وربما حاولتُ نسيانه بخوض مغامرة شبيهة مع شرف، ولكن شرف لم يكن يثيرني.

بالتحديد لم أكن أحبه، ولم أكن أكرهه، وذات يوم صارحته أن قبله المستعجلة لا تعجبني، فسألني ساخراً:

ـــ هل أفهم أن علاقتنا انتهت بهذا التصريح الخطير.

ــ ليس بالضرورة (قلت له).

ــ مهلاً ... عليّ أن أفهم ما المطلوب مني بالضبط.

ــ ليس بالشيء الكثير، أنا أحب رفقتك، ولكني أكره طريقتك في التقبيل، أحب أن نلتقي فقط لنتحدث.

تقمّصْتُ يومها سادية «إيس...» فتركت شرف في مقهى «فلور» بـ «بولفار سان جرمان» مشدوهاً غير مستوعب تماماً ما الذي حدث، فقبلها بأيام كنتُ أوهمه أنني أحبه دون أن أقصد ذلك بالفعل.

بعد ذلك اليوم دخلت فترة اكتئاب فظيعة، انتابني فيها شعور لا أستطيع وصفه، لكنه مؤلم جداً، وطيلة الوقت كنتُ أفكر في «إيس...».

أن نفكر في رجل لا يبالي بنا هو المأساة نفسها، وأن تفكر المرأة في رجل لا تعني له أكثر من ثقب شهوة فهذا يعني المأساة مضاعفة.

«إيس...» كان من هذا النوع، كان من النوع الذي يدخل عالم المرأة دون أن يطرق الباب، ويخرج دون أن يستأذن ويعتذر.

المرأة بالنسبة له خيمة مستباحة.

ماري تقول إن أغلب المثقفين العرب لا ينظرون إلى المرأة سوى أنها ثقب متعة ولذلك يناضلون من أجل الحرية الجنسية أكثر مما يناضلون من أجل إخراج المرأة من واقعها المزري. إنهم على عجلة من أمرهم ولذلك هم في واد والمجتمع في واد آخر.

ماري تقول إنها لا تقع في الحب بسهولة وهذا ما يجعلني أجدها قوية. إنها ليست مثلي أنا التي وقعتُ في حب رجل لمجرد أنه قبّلني أمام الملأ قبلة مفاجئة!

كنتُ أظن أن رجلاً بهذا السلوك رجل عاشق يقول الحب بتصرفات علنية. ظننته ذلك النموذج الرومانسي الذي تقدمه لنا السينما الأميركية. وكنتُ مخطئة بالتأكيد، الرجل العربي في داخله ميراث قرون من الجاهلية. ماري تقول إنها «ملحدة رومانسياً» وقد وجدت في هذا التعبير شيئاً جديداً لم أكتشفه في النساء من قبل.

إنها امرأة ذكية، تعرف تماماً أن الرجل كائن يتقن حرفة الصيد قبل أي حرفة أخرى.

ــ لماذا تحبهم إذن يا ماري؟ لماذا؟

تهزّ كتفيها وتجيب بهدوء:

ــ إنها سُنّة الله في خلقه.

ماري مؤمنة أيضاً، والمرجع الإلهي يحضر دائماً في حديثها ولكنها تحب القمار وتعتبره خطيئتها الوحيدة في الحياة.

* * *

في شهر رمضان التزمتُ أمام الله، أردتُ أن أتخلص من بقايا «إيس...».

الإيمان في الحقيقة بديل جميل للحب، لكنه ليس بديلاً للشهوة، ومشكلتي كانت بالضبط شهوة على حب على جنون على شيء لا أفهمه.

ماري نفسها لم تكن تَفْهَمُني، لكن توفيق فهمني.

لا أدري بالضبط كيف عرّيت عواطفي أمامه، وكيف تجرأت أنا المرأة المتزوجة، أن أخبره بما حدث لي مع «إيس...» وأنني أفتقده رغم شراسته، ووحشيته.

أفتقد جداً ملمس لحيته، ورائحة عنقه، وطعم شفتيه، وجسده الجبار الممتلىء والذي يعطيني شعوراً جميلاً برجولته وبأنوثتي.

بكيت وأنا أروي تلك التفاصيل المحرجة له، ولم أتوقع أبداً أن يكون متفهماً، ولا أن يحتضنني كطفلة ولا أن يقول لي هامساً:

ـ بعض الرجال سيئون، وبعض النساء مخدوعات، وهذا لا يعني نهاية العالم.

يومها اقترح عليَّ أن نغني معاً في أحد مقاهي المغتربين. أراد حتماً أن يخرجني من القبر الذي دفنتُ فيه نفسي ولكن أوحال الأزمة كانت تحيط بي من كل الجوانب، فلم أقرر. كنتُ أصحو للسحور وحيدة وأتذكر رائحة الخبز الساخن المدهون بالسمن، وقد حضّرته والدتي طازجاً، ورائحة القهوة، وطبق «المسفوف»[1] المزين بالزبيب،

---

(١) كسكسي مع الزبدة والسكر.

وجلبتنا وسعال جدتي، وصوت المآذن معلنة موعد السحور وهواء «شارع شوفالييه» الذي يملأ الرئتين بمذاق يعتبر من أسرار المدينة.

أجلس أمام طاولة المطبخ وأغمس الكعك الفرنسي الطويل في كوب الحليب، وأبتلعه وكأنني أبتلع قطعاً من الطبشور.

لا مذاق للسحور هنا، وقد حاولت مراراً أن أُحضِّر الخبز المدهون بالسمن، ولكن الرائحة التي تسكن ذاكرتي لم تنبعث منه، وحتى مذاقه اختلف.

دقائق قليلة وأنهي كوب الحليب، لتنطلق المآذن في رأسي تذكرني بوقت الإمساك.

في باريس الوحشة لها مخالب، أما الصيام فقد يتحوّل فجأة إلى غذاء للروح لإبقاء القلب صامداً وحماية الذات من التفتت.

شخير «مود...» يملأ الغرفة، وينبعث وكأنه صوتُ محرك قديم.

رائحة الويسكي تملأ المكان، «مود...» شرب حتى الثمالة البارحة وبالتأكيد لن يقاسمني متعة الصيام سينهض ظهراً، وسيدخن سيجارته المقرفة، ويشرب كوب «النيسكافيه» على مرأى مني.

في رمضان يتحوّل إلى شرس فوق العادة.

أقوم إلى الصلاة وظلُّهُ يلاحقني، وصوته المبحوح يملأ أذني وهو يزمجر في وجهي:

ــ أنت مرتي...

أجيبه وأنا مصدومة:

ــ ولكن نحن في رمضان، وأنا صائمة.

يمسكني من كتفي ويحاول طرحي أرضاً.

ــ سأضاجعك أيتها القحـ...، سأثبت لك أن لا ربّ في هذا البيت غيري.

أركله، وأحاول أن أتحاشاه، أخدش وجهه بأظافري، يعلو صراخي ويزداد عويلي، وأنا أستنجد بوالديّ:

ــ يا بابا ... يا أمّا..

ــ سأضاجعك، وأضاجع باباك وأمك يا واحد الرخيصة.

يزداد صراخي... فإذا بالباب يدق.

يقوم عني، ويبصق عليّ قبل أن يتوجه نحو الباب ليفتحه.

إنها الشرطة مرة أخرى.

يسأله الشرطي بتهذيب:

ــ سيدي إن جيرانك منزعجون.

يشعل سيجارة ويرد عليه:

ــ أنا آسف، لن يتكرر هذا مرة أخرى.

ــ ولكنك سبق وأن وعدت بذلك!

ــ ماذا أفعل، إنها زوجتي وترفض أن أضاجعها لأنها صائمة،

بشرفك أي رب يمنع زوجاً من مضاجعة زوجته؟

يبتسم الشرطي بخبث ويرد:

ـ ربنا لا يمنع ذلك، أمّا ربكم فلا أدري.

يكشر «مود...» عن أنيابه وهو يبادله الابتسامة:

ـ سيدي كم أحترم ربكم.

لقد اشترى رضاه.

سأتغاضى عن الأمر هذه المرة، عليك أن تحل مشاكلك بهدوء مع زوجتك، لكنني لن أكون متسامحاً في المرة القادمة.

غادر الشرطي، وأغلق «مود...» الباب، ثم نظر إليّ وقال بلؤم:

ـ لكِ ما تريدين، سأذهب عند «ليلي» وحين أعود سأنهي موضوعي معك مرة واحدة.

لم أفهم. ولكني ارتحت.

* * *

في رمضان الأيام تتحوّل إلى ألم متسلسل، أتسحر وأفطر لوحدي، وأصلّي أغلب الوقت، وأقرأ القرآن.

أمام اللّه أشعر بنجاستي. إذ أسترجع قُبَلي المختلسة مع «شرف»، ومع «إيس».

أحار، تراني عاهرة صغيرة، أو مشروع عاهرة، أم أنني أشبه كل الناس وما يحدث لي طبيعي وعادي؟ أتساءل لِـمَ لا أنهي علاقاتي الرجالية المختلسة؟

لِـمَ لا أكون امرأة مفرغة من الشهوة؟

لِـمَ لا أكون كائناً متفرغاً للتعبد؟

لِـمَ لا أكون ملاكاً؟

* * *

يوم العيد، هو الأسوأ على الإطلاق بالنسبة لي في باريس. هنا كل شيء على عادته، الناس متأنقون دائماً، الأطفال يعيشون طفولتهم بفائض من الفرح، الأماكن نظيفة، اللافتات تبتسم، الشوارع في عيد متواصل وممل. في قسنطينة الحزن يخجل بأثوابه الرثة وسحنته المنكسرة يوم العيد، فينحسر حيث الظلال.

العيد مدهش في قسنطينة، البالونات ترقص بين أصابع الأطفال. وعلى غير العادة هؤلاء الأطفال متأنقون، وقطع نقدية ترن في جيوبهم.

طبعاً، إنه العيد، ويحق لكل طفل يوم العيد بقطعة نقدية، وكثير من الحلوى وفرح يفوق الفرح المختصر في الأيام العادية.

طبعاً، إنه العيد، ويحق للمآذن أن تكسر الصمت الروتيني وتقول كلاماً إضافياً لله، صلاة العيد تمتد حتى نتحوّل جميعاً إلى كائنات

مؤمنة، نتسامح و«نتغافر» وننسى الأحقاد الصغيرة التي تختبىء في صدورنا ثم نحتفل.

صواني الحلوى، وعطور النساء، والحكايات، الضحكات، وأصوات الأساور... وسعال الرجال المفتعل.

لا شك أن المدينة التي تعاقبنا حزناً في غير العيد، يتغير مزاجها في هذا اليوم، فتصبح ودوداً وصامتة، عجيب... حتى الجسور تصمت.

لا أحد ينتحر يوم العيد.

في باريس، المسلمون يزدادون عدداً ويتماً. تتقاطع نظراتهم يتماً.

يتعانقون يتماً...

يتبادلون التهاني بالشفاه في القلوب هناك... تتأوه في قعر الذاكرة، تقبع في الأماكن القديمة، وتبكي في صمت.

الحكمة الجديدة تقول: الدين ليس للأمكنة كلها!

في باريس الماضي يطغى، الذاكرة تحتفل، إنه قانون المنفى، كل شيء يفقد حلاوته، وطن الماضي يفرض سلطته، الأيام تركض قبل أن تمهلنا لحظة لاستيعابها، الوحدة مُرّة وخانقة.

توفيق يطرق الباب.

أفتح الباب... العيد في عينيه.

يفتح ذراعيه ويحضنني:

ــ كل عيد وأنتِ بخير.

شيء ما كان مختلفاً في نبرته.

لطالما كنا أبناء عائلة واحدة، ولكن الفقر كان حاجزاً بيننا، هو ابن «Belle vue» (المنظر الجميل) الحي الراقي للطبقة المخملية في قسنطينة، وأنا ابنة شارع «شوفالييه»، ابنة الشرطي الفقير المعدم، ابنة الحي الشعبي، ومرق البطاطا واللوبيا والعدس.

هو ابن العزّ، ابن المشاوي، والعيد الذي يتكرر كل يوم، والأيام التي لها طعم السكن، أظن أن الله أوجد الأعياد من أجل الفقراء!

توفيق أمامي وكأنني أعرفه منذ ألف عام، وكأنني أراه بعد فراق سنة. غمرته.

أردت تقبيل عينيه.

قال وهو يمسك بيدي:

ــ أريدك أن تكوني «باني» التي أعرفها في السابق، الصبي ذا الضفائر، المتمردة التي رفضت التدجين.

دعوته للدخول، الماضي يحط على كتفيه، قسنطينة تتربع على ابتسامته، شيء لم أكن أفهمه، شيء! بأي كلمة سأفسره؟ وهو غير مرئي، وغير ملموس، لكنه نما بيننا في تلك اللحظة، شيء اتفقنا عليه أن يكون ويستمر ويكبر.

ــ «مود...» لم يعد إلى البيت منذ ثلاثة أيام (قلت لتوفيق).

ــ وهل لهذا معنى؟ (سأل).

ــ طبعاً، إنه عند صديقته «ليلي»، وأظنه يفكر بجد في الانفصال.

لمعت عيناه، وكنتُ قد رأيت ذلك البريق يوم غنّينا معاً في رمضان أمام جمهور المغتربين.

البريق نفسه، والرعشة نفسها التي انتابتني ذلك اليوم. يومها كنتُ أظن أن للزغاريد والألحان والأجواء الجزائرية دخْلاً فيما حدث لي، ولكن ها هي الرعشة نفسها، تبدأ من نواة الصدر وتنتهي عند رؤوس الأصابع.

ــ إنه الحل الأمثل لكليكما (قال).

لم أقل شيئاً، أومأت أن نعم برأسي، وسألته ماذا يشرب ولكنه لم يجبني، ظل يتأملني ثم سألني بدوره:

ــ هل ما زلت متعلقة بذلك اللبناني؟

كان السؤال خطيراً ومحرجاً، وقد احتجتُ لبعض الوقت لأجد كلمة مناسبة أقولها له، أردتُ أن أكون مموهة، أن لا أقول الحقيقة تماماً، وأن لا أكذب تماماً:

ــ لا أدري (قلت) تبدو لي المسألة مجرد خدعة عواطف، الحب الحقيقي لا يكون من طرف واحد، فبعض الأهداف العاطفية ليست أكثر من لعبة للاشعور، نحن نُحِبُّ رغبة منا في أن نُحَبَّ، وليس رغبة منا في أن ننكسر ونتحطم، «إيس...» يحولني يوماً بعد يوم

إلى قطعة نرد خاسرة لكن عقرب العمر يشير إلى خطورة استمرار اللعبة، أظنني بحاجة إلى بعض الوقت لأرتّب عواطفي من جديد من أجل شخص يستحق ذلك. إنني أفكر في إنهاء هذا الزواج والعودة إلى الجزائر، والبدء من جديد.

ــ عظيم... يمكنك أن تبدئي من هنا أيضاً.

سألته لماذا يود الذهاب، فأجابت عيناه، وقالت أصابعه شيئاً لشفتيّ...

كنتُ متفاجئة جداً، ولكني سررت، فحملت حقيبة يدي ورافقته.

* * *

يومها كان بودي أن أرافقه إلى آخر الدنيا، أن أحتمي بظله من وهج فرحتي الحارق، ولعلي حررت جنوني أمامه، فضحكتُ بصوت عالٍ، وركضتُ في الشوارع، وتمنيت لو أنه بإمكاني أن أقفز في الفضاء وأطير فرحاً.

شيء ما جعلني على حالتي تلك، لكنني لم أفهمه.

المشكلة لديّ موغلة في القدم.

ها هو صوت جدتي مرة أخرى يتناهى إليّ:

ــ «باني»... أين أنتِ يا «باني».

لا أرد، أذهب إليها مباشرة، وأقف أمامها منتظرة طلبها:

ــ إجلسي بقربي يا «باني» لماذا تتركوني وحيدة طيلة الوقت؟

أسألها:

ــ أليس جميلاً أن يكون المرء وحيداً؟

فتقول بصوتها المتألم:

ــ لا... الوحدة قاتلة، لا فرق بينها وبين الموت.

أهزُّ كتفي دون أن أفهم تماماً ما تقصده وأقول لها:

ــ أنا لم أمت من قبل لهذا لا أفهم ما تقصدينه.

ــ يفاجئني صوت توفيق:

ــ أقسم أنك في شارع «شوفالييه»!

فأستيقظ على ابتسامته:

ــ أتذكر جدتي دائماً يا توفيق، وأتذكر عمي محيي الدين وزوجته محبوبة و«الزنقة» وأحياء قسنطينة القديمة وكل شيء هناك.

ــ الحياة هناك لها روح غريبة. (قال).

الحزن في عينيه مُلَوَّن، مثل فراشات ليلية مبهورة بالأضواء. باريس شاسعة ولكنها في ذلك اليوم لم تتسع لمشاعري. توفيق كان أكبر منها، أكبر من شهوتي لـ «إيس...». أبهى من شوارع قسنطينة... وأجمل... أجمل بكثير من الليل الباريسي الجميل.

مشينا ...

مشينا كثيراً...

وأنا في الحقيقة كنتُ أفكر، وكنت أعرف تماماً أن في عمقي أنثى

من جنس الشيطان، أنثى تريد مني أن أعبث، وألهو، وأختبر المخابىء التي تكون في داخلي منذ الطفولة، أكتشفها وأكتشف نفسي من جديد.

مؤلم.. حين نعيش على هامش أنفسنا، وحين تعبرنا الحياة وكأننا غير معنيين بها.

مؤلم أيضاً أن تجهل المرأة ما تحويه أعماقها من مناجم، وتقضي حياتها تعاني من فقر عاطفي، أو قحط حقيقي لكل معاني الحياة.

جدتي التي كانت أمية مائة بالمائة، والتي كنتُ «جاهلة» بالمعنى العميق للكلمة فاجأتني ذات يوم بحكمة أحملها اليوم بين دفتي صدري ككتاب مقدس قالت: «في عمق المرأة أماكن كثيرة تشبه الغابات والأدغال والأرض الخصبة يجهلها الرجل لذلك يتعب من حياته مرتين مرة لأنه لا يعرف المرأة، ومرة لأنه لا يحاول أن يعرفها»، كيف توصلت جدتي إلى النظرية؟ بأميتها وحياتها المتعبة وعمرها الذي سُرق منها بالكامل مرة بسبب الحرب، ومرة بسبب تشتت أبنائها: محيي الدين عمي الذي اختار الفن ومات بسببه، وسعيد أبي الذي نذر عمره للشرطة، وعمتي نوارة التي ابتلعتها الغربة منذ هاجرت مع زوجها منذ أكثر من عشرين سنة إلى مارسيليا فأصبحت على رأي جدتي مثل الغراب الذي نسي طريقة مشيه حين أراد أن يقلد الحجل في ذلك.

وعمتي زهوة التي ماتت أيام الحرب بسبب الطاعون. مسكينة جدتي.. الموت سرق فرحها باكراً.

في التاسعة والتسعين من عمرها، تبكي زهوة وتتذكر:

ـ وضعناها في حفرة باردة وعدنا إلى البيت.

ـ أبعْد كل هذا العمر تبكينها يا جدتي؟

لكنها تجيب بحكمة:

ـ العمر يتوقف عند النكبات يا «باني». بعد زهوة ما عاد للعمر قيمة.

لهذا السبب لم نخبرها بموت عمي محيي الدين، قلنا لها بأنه وجد عملاً في مارسيليا، وأنه استقر عند نوارة.

ـ وكيف لا يودعني قبل أن يسافر؟

فأجيبها بأكاذيبي المعتادة:

ـ لأنه سيعود بعد أسبوع، فهو بحاجة لبعض الأوراق الرسمية.

يرتفع أذان صلاة الظهر، فينقذني من إيجاد كذبة أخرى لترميم قصصي الباهتة. فأقوم أنا و«شاهي» لنساعدها على الدخول إلى الحمام، ثم نوضئها للصلاة فتصلي وهي جالسة وترفع يديها طويلاً إلى السماء. أظنها تدعو الله لكل واحد منا، وبالطبع لا تنسى عمي محيي الدين وعمتي زهوة.

ثم يأتيني صوتها من جديد:

ـ أريد أن أجلس في الشمس يا «باني».

فنجالسها في «الحوش» تحت الدالية، وتغفو وهي جالسة، ورجلاها

ممددتان تحت الشمس.

ـ مسكينة جدتي، (أقول ذلك لأمي).

ولكن أمي لا تتعاطف معها، إذ بينهما عداء خفي نشعر به ولا نراه، فتهز أمي كتفيها وتستخف بكل أوجاع الجدة ثم تقول:

ـ إنها خرفت، هل تصدقون فعلاً أنها تتألم؟

ـ وهل الخوف يجرد المرء من أحاسيسه؟

فتغضب مني وتصب جام غضبها عليَّ وعلى أخويَّ متهمة إيانا أننا لا نحبها ولا نشفق عليها. ففي قاموسها الضيق، التعاطف مع جدتي معناه أننا نقف ضدها.

لربما تاريخ حياتهما معاً كان مليئاً بالمشاحنات، ولكن جدتي بلغت من العمر ما جعلها تتحوّل إلى كائن لا حول له ولا قوة. مجرد هيكل عظمي يقاوم الموت بالقدرة الإلهية فقط.

ـ الموت مخيفٌ يا توفيق.

وكأن لا فرق بين الماضي والحاضر، أعيش الماضي للحظات ثم أعود إلى الحاضر فأباغت توفيق بسؤالي ذاك.

ليجيبني وهو يأخذ نفساً عميقاً:

ـ ألا تنتهي أحلامك هذه؟

ـ وكيف تنتهي الأحلام وهي ذخيرتي للحياة كلها.

منظر باريس من شرفات «برج إيفل» منظر لن أنساه، ربما للوهم دخل في ذلك.

توفيق كان محباً، وذاك كان كافياً لي لأكون سعيدة.

ــ هل تذكر «محبوبة»؟ أسأله.

فيبتسم وهو يحاول تذكرها.

ــ أوه... محبوبة.. طبعاً زوجة العم محيي الدين، إنها امرأة فاتنة.

ــ بالطبع، فاتنة، هل تذكر لون عينيها؟ ولون وجنتيها الزهري. كانت تحفة.

ــ أذكرها جيداً، إنها تشبه نساء «رينوار» في فتنتهن. ألا توافقينني الرأي؟

ــ هل تذكر يوم انتحرت؟

ــ انتحرت؟ (يقول مصدوماً).

ــ ألم تكن تعرف؟

كيف لتوفيق بسطانجي ابن «Belle vue» أن يعرف مصير محبوبة عمي؟ كيف له أن يعرف الماضي ذا المذاق المرّ، ماضي الأحياء الفقيرة، والجوع الذي رمى بمحبوبة من جسر «سيدي مسيد».

ــ قسنطينة مدينة عجيبة (يقول) إنها تفتن وتقتل بالأداة نفسها.

ــ لهذا هي سيدة المدن.

ولكنه لا يوافقني:

ــ لا تبالغي، باريس هي سيدة المدن.

أنظر إلى عينيه فأعرف أنه يكذب، باريس مدينة لا تعبأ بك، قسنطينة تتوغل فيك كسهم.

ــ لا أصدقك (أقول له).

ــ ربما... تعرفين قسنطينة سيدة في القلب.

ــ أعرف (أقول له بحزن) ولكنني أعرف أيضاً أنها مدينة بلا قلب. عرفت ذلك يوم انتحرت محبوبة.

ــ لكن كيف لم أعرف بانتحارها؟!

ــ عجيب، كيف لم تعرف، وقسنطينة لا تخفي خبراً كهذا؟!

ألا تذكر فعلاً؟ حدث ذلك بعد سنة من اغتيال عمي، في اليوم نفسه الذي اغتيل فيه، حين كانت جمعية «الربيع القسنطيني» تحيي ذكرى وفاته في مسرح قسنطينة الجهوي. يومها كانت قد عانت سنة كاملة من الجوع. والدي كان يكرهها لأنها كانت مومساً في ماخور «رحبة الجمال» وكان يمنع والدتي من أن ترسل لها شيئاً. وكنتُ خفية آخذ لها بعض الخبز والتمر والحليب، وأحياناً بقايا أكلنا من مرق البطاطا أو الحمص فـ «أخطف رجلي» في وقت دوام والدي وأعود قبل أن يراني.

بعد ثلاثة أسابيع من اغتياله، دعاها الوالي في حفل متواضع وقدَّم لها وساماً أمام الكاميرات، شيئاً يشبه قطعة نقدية قديمة تتدلى وسط

شريط ملوّن بألوان العلم الجزائري، ووعدها أن يهتم بها بقول لم يكن غريباً على مسامعنا «ستهتم السلطات بك، فمحيي الدين بسطانجي رمز من رموز قسنطينة، أقنعها أمام الكاميرات أنها المرأة التي وقفت خلف ذلك «الرجل العظيم».

وبعدها بأشهر زار الوالي محبوبة في بيتها وعرض عليها أن تكون عشيقته مقابل أن يوفر لها الحياة الرغيدة التي بالإمكان أن تحميها من مخالب المجتمع.

عرفتُ ذلك منها في اليوم التالي، قالت لي أنها بصقت على وجهه.

بعينين ذابلتين قال لي توفيق:

ــ أشعر بالمسؤولية تجاه ما حدث.

ــ أعرف (قلت له) لأنك الوحيد الذي كنت تفهم عمي محيي الدين من الشق الآخر من العائلة، لا، بل كنت الوحيد في العائلة بشقيها، وأنت الوحيد الذي ورثت حبه للفن.

بتواضع قال:

ــ أنا وأنتِ.

توقفت عند تلك الجملة المكونة مني ومنه.

عند لعبة الوهم تلك، التي أبدأها دائماً عند جملة مماثلة، أو عند صدفة تتوافق مع مشاعري أو عند قبلة مثل قبلة «إيس...» (أنا وأنتِ).

ـــ أريد أن أعود إلى البيت يا توفيق.

ـــ لكنه العيد، والوقت ملكٌ لي ولكِ.

(لي ولكِ).

لعبة الوهم تلقي شباكها على مواقع تفكيري، وتزداد حدّة حين نبلغ البيت. أفتح باب شقتي وأدعوه للدخول. يتردد قليلاً ثم يدخل، أبحث عن زر النور، يمد يده ويبحث عنه هو الآخر، تتعانق أصابعنا وتبدأ قصة هنا في العتمة تحركها الأصابع ثم الأنفاس، ثم صمت متآمر مع الخطيئة...

ـــ أين الزر اللعين؟

أردد في داخلي، ولكن الزر يضيع على جدار صار كعبة للحب.

يضيع الزر، تزداد العتمة اتساعاً، الباب ينغلق خلفنا والأمور تزداد سوءاً حين أجدني مقيّدة بشفاهه، لقد أصبحتُ له، وما عاد بإمكاني الإفلات من قبضته. قبلةٌ مطوّلة.

قصة مختصرة لجسدين لفقت لهما الغربة أكثر من تهمة.

ـــ أين الزر اللعين؟ (قلت بصوت يتعثر).

التصق بي أكثر، وكان سريعاً وهو يفك زر بنطلوني ثم السَّحّاب ثم اجتاحني بأصابعه.

ـــ لا تشعلي النور (قال لاهثاً).

وكنتُ أفهم عمقه وكأنه يقول: لا تنيري جوانب خجلنا.

وقد كان يمكن للنور أن ينقذنا من خطيئتنا، ولكنها العتمة، ورغبتي في أن أُحبَّ وأرغب، وأَشتهي ونقمتي على «مود..»، وعذريتي التي هُدِرت، وجسدي الذي انتُهك، وقلبي الذي ديس وتاريخ مرير من النفاق ساد كل الدنيا وأنا بين قوسين من الحشمة والعار دون بوصلة وتحت سماء تنام نجومها خلف جدار من الغيوم، لا أرى ، لا أسمع، لا أعي فقط سيول من اللذة تنهمر عليَّ من جسده، شفاهه، وزاوية السحر التي قسمتني نصفين على سجادة غرفة الجلوس، على أرض صلبة، ثم أمطرت في داخلي، ثم انفجرت فيَّ كل الينابيع ثم هبّت الريح لطيفة ومسالمة، واهتزت غابات الروح، وطارت أفواج العصافير ثم زقزقت.

ثم بزغ الفجر من عينيه فإذا بي تلة أعياها ليل ماطر، تنفستُ بعمق، تنهدت، وحاولت أن أبقيه مستلقياً على جسدي، أستعلي ثقله، وملمس جسده وروعة كونه رجلاً وأنا امرأة.

ظل مستسلماً لأصابعي وهي تلهو بين خصلات شعره لبعض الوقت، ثم قبّلني على الجبين واستأذن.

وحين خرج جال تفكيري في كل جوانب ما حدث. بيني وبين نفسي كنتُ سعيدة وخائفة.

* * *

صباحاً...

كانت باريس جميلة، بأهداب تقول الشهوة، وشفاه تبتسم وشمس

أكثر إشراقاً من ذي قبل.

أمّا صوته، فقد حلّق بي عالياً، أعلى من البرج، وأعلى من جبال «البيرنيه» وأعلى من الغيوم، وأعلى من كل الآفاق، وحطّ بي على كوكب الزُّهرة.

ــ باني.

خانني صوتي فلم أردّ، ولكنني تمسكتُ بسماعة هاتفه الصباحي ذاك، أصغي لنقاوة صوته:

ــ هل تصدقين؟ ما زلت أرتجف منذ البارحة.

لم أجبه، تمددت، وتنهدت، وأغمضتُ عيني لأحلم.

ــ ألم تكوني سعيدة البارحة؟ لِمَ لا تردين؟

ــ أحياناً (قلت له) ننتشي أكثر حين نسمع.

ــ قلتُ لكِ ما زلت أرتجف.

ــ أمّا أنا فقد حافظت على كل آثارك على جسدي، يصعب عليّ أن أستحم اليوم.

ــ لي اقتراح آخر.

ــ ما هو؟

ــ أن نستحم معاً.

كل شياطين الأرض هبّت في جسدي، فارتديتُ ثيابي بسرعة وهرولت إلى بيته لأخلعها ثانية.

لَعَنّا الشبق منذ النظرة الأولى، وارتجفنا معاً هذه المرة، من قال... إن الحب كان على بعد خطوة مني؟ وأنا في دوامتي المظلمة تلك، أتنقل بين «إيس...» وشرف ورجال لا علاقة لهم بالحب.

لعلّي شعرتُ دائماً أنني على وشك أن أحب توفيق، ولكنه كان رجلاً بطيئاً، يمنح للأحداث فرصة للتبلور وذاك ما لم أفهمه. أو ربما فهمته ولكن متأخرة بعد أن قشرت وقاري أمامه وأنا أحكي له تفاصيل تعلقي بـ «إيس...».

لم أكن العذراء التي تهب عذريتها لرجل عمرها، وهذا ما جعلني أشعر أن الوقت فات لبداية حب جديد وحياة جديدة.

في نظري، كما في نظر ملايين البشر، أصبحتُ شبه مومس بتجاربي المبتورة تلك، وكان من الصعب البحث عن بوابة جديدة لا تفتح على مزيد من الخطايا. وإذ فاجأني توفيق، فقد جعلني أكتشف صدق مقولة لـ « ﷺاولو كويلو» تقول «الجنس بلا عاطفة عنف نمارسه على أنفسنا».

ما أقسى أن نسلّم أجسادنا باسم وثيقة زواج لمن يقيم ورشة عمل عليها، أو بحثاً عن المتعة وكأننا نقتطع ورقة يانصيب من النادر أن تصيب.

ما أقسى أن نُحوّل أجسادنا إلى وسيلة مُبَرَّرَة لغاية!

في أحضان توفيق أدركتُ قساوة ما فعلته بنفسي وأدركت ما يمكن أن تعانيه كل النساء وهن يمارسن الجنس بلا عاطفة فقط لأنهن

متزوجات مع أزواج يثيرون الشفقة وهم يبحثون عن المتعة عند «ليلي» وتحت نير الفقر والعوز.

شعوب بأكملها تمارس العنف على نفسها دون أن تعي ذلك.

اغتسلت في حمام توفيق كمن يغتسل من خطاياه حتى تحوّلتُ إلى امرأة أخرى، بعدها تقاسمت معه فنجان «كابوتشينو» ونزلت إلى شقتي لأرتب أموري.

كنتُ واثقة لحظتها أنني اهتديتُ إلى الطريق وكان يلزمني بعض الترتيب لا أكثر.

* * *

أسبوع كامل في الجنة.

ثم اتخذت قراري لأعود إلى قسنطينة وأواجه العائلة بطلاقي من «مود...».

عدتُ وأنا مقتنعة أن «الباب الذي تأتيني منه الريح لا يمكن سدُّه لأستريح» يجب كسره، والوقوف في وجه الريح حتى تهدأ.

لقد تعلمنا سياسة الإغلاق منذ نعومة أظافرنا، ولهذا نحن نجهل تماماً ما معنى الريح، وما معنى أن تهب وما معنى أن تجرف معها الوساخات والمبادىء المزيفة والأعراف المعلقة كالتعاويذ والتقاليد «الكرتونية»!

عُدْتُ وأنا محمَّلة بثورة، أخبيء جيشاً بأكمله بين ضلوعي. أفكر

في النتائج فقط، دون أن تخيفني بتاتاً فكرة الحرب التي ستقوم في البيت، والأمراض التي ستصاب بها والدتي من جرّاء طلاقي، والعتابات والأسئلة، ونظرات الشفقة والخزي التي سيلاحقني بها أهل الزنقة.

حين أعلنت المضيفة أننا صرنا في قسنطينة ازددت صلابة، وحين بلغتُ البيت تحوّلتُ إلى جمرة حارقة. كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً.

أخي إلياس كان يتناول غداءه متأخراً، أمي إلى قربه كحريم القصر تقشر له برتقالة، أبي يدخن سيجارته التي تشبه الحشيش، المنظر كان مألوفاً لديَّ. منظري هو الذي لم يكن مألوفاً لديهم، بشعر متحرر، وماكياج خفيف وسحنة تشبه علامة الاستفهام ألقيتُ التحية.

الباب كان مفتوحاً على «الزنقة»، قام إلياس وألقى نظرة على الخارج ثم سألني دون أن يرد أحدهم عليَّ التحية:

ــ أين «مود...»؟

وضعتُ حقيبتي جانباً، وبحثت عن الحرب في عيونهم جميعاً، وحين رأيتها أجبت:

ــ لقد طلّقني.

الخبر الصدمة يحوّل الجبابرة إلى أقزام.

لكأنني قلت شيئاً أكبر من شراسة والدي وتبعية أمي، وظلم إلياس. جميعهم ظلوا يحملقون فيَّ دون أدنى حركة، فدخلت غرفة

الضيوف التي هي غرفتي أنا و«شاهي» ليلاً، وغرفة لاستقبال الضيوف في الوقت نفسه نهاراً. جلست على «الصوفا» بهدوء، فإذا بإلياس يلحق بي ويقول لي بغروره الأجوف:

ــ سنسوّي الأمور غداً، وكل شيء سيعود إلى طبيعته.

نظرت إليه، لا شيء تغيّر في عنجهيته، عيناه لا تزالان كإشارات المرور تضيئان بالأخضر، ومرة بالأحمر، ومرة أخرى تعدان بالجحيم.

كاد يخرج بعد أن رمى لي بجملته تلك، لولا أني بهدوئه نفسه قلت له:

ــ الحياة بيننا مستحيلة، لا تحاول!

لكنه لم يعبأ بما قلت، رمى تعليقه قائلاً:

ــ أنا الذي أقرر ولستِ أنتِ.

وخرج.

في تلك الليلة بالذات كان الهدوء الذي يسبق العاصفة يخيّم على البيت.

وقد تذكرت متأخرة أني سافرت دون أن أودّع ماري، وأمل والجد موريس، ولم أجد تفسيراً لسلوكي ذاك سوى أننا حين نحب نختصر العالم كله في الشخص الذي نحب، وحين نصاب بقحط عاطفي نشعر بيتم حقيقي وسط عالم مكتظ. في تلك الليلة أيضاً استفقدت جدتي، وشعرتُ أن غيابها أصبح مؤلماً، كانت الوحيدة

التي أحبتني لأني كما أنا. غرفتها الصغيرة تحولت إلى غرفة لوالدي، بعد أن تزوّج إلياس ومنحاه غرفتهما بكل أثاثها القديم والجميل.

زوجة إلياس لم تخرج من الغرفة لتسلم عليّ، بالطبع كان هناك سبب ما يمنعها من الخروج، وبالطبع لم أكترث لذلك السبب ولا لها. فقد أحببتُ اختلائي بنفسي وأحببتُ أصوات الشارع وروائحه، أمّا المآذن فقد ذكّرتني أنني زانية ولكنها قالت ما تريد عند الغروب وصمتت وبدت مسالمة أكثر من أي وقت مضى.

لم أكن مجهدة من السفر، كنتُ مجهدة من التفكير ولم أجد من ينقذني لإيقاف مُحرّكات مخي من الدوران. حتى التلفزيون نُقل إلى غرفة إلياس ولم يعد هناك شيء يسلّي في ذلك البيت غير الاستسلام لمحرّكات المخ وضجيجها.

* * *

أسبوع مضى، ثم أسبوع آخر، ثم كاد الأسبوع الثالث أن ينقضي وأنا أفكر، وأمي تفكر، وأبي يفكر، وإلياس يفكر.

في الحقيقة كنتُ أعرف ما أريد، أمّا هم فقد كانوا يفكرون في أشياء كثيرة متفرعة وكثة تتعلق بمصيري وإيجاد تبريرات لكوني مطلقة في البيت.

مطلقة؛ تعني أكثر من أي شيء آخر امرأة تخلصت من جدار عذريتها الذي كان يمنعها من ممارسة الخطيئة، امرأة بدون ذلك الجدار امرأة مستباحة، أو عاهرة مع بعض التحفظ.

هذا الثقب اللعين هو مركز ثقل «الزنقة» كلها، الثقب الذي انهار جداره هو كل ما يراه الناس في امرأة مطلقة أو أرملة.

«مود...» رفض التحدث مع إلياس في الموضوع، وقال له بالحرف الواحد «أختك ترفضني، إنها لا تريدني ولهذا أعدتها إليكم».

إلياس بعدها جنّ. أراد قتلي وتمزيق جثتي في «الزنقة».

ــ مولود رجل تتمناه كل امرأة (قالت أمي).

«مولود» هو الاسم الحقيقي لـ «مود...» حرّفه له الأصدقاء في المهجر ليتناسب مع شقاره وملامحه الغربية.

ــ مولود لم يخسر شيئاً، أنتِ التي خسرت كل شيء (قالت أمي مجدداً).

ــ ما الذي يزعجكم إن خسرت أو ربحت، الأمر يعنيني. ولكن إلياس لم يسمح لي بمواصلة الكلام، صفعني حتى وقعت أرضاً، ثم أمسكني من شعري وراح يزمجر:

ــ ستعودين إليه في أقرب فرصة، وستركعين أمامه مثل كلبة، وستعيشين معه حتى تموتي.

حتى أموت؟

كان والدي يفعل ذلك بوالدتي أيضاً. كنا أطفالاً، وكان يمسكها من شعرها ويرغمها على الركوع أمام قدميه ويردد: « ...حتى

تموتي... حتى تموتي...».

ولم نكن نفهم سرّ الخلافات بينهما، كنا نفهم فقط أنه يرغمها على شيء ما، ستقوم به حتى تموت.

كلمة الموت هي التي كانت تخيفنا، أمّا اليوم فلم تعد تعني لي شيئاً، حتى ضرباته لي لم أكن أشعر بها، لكنني كنتُ أسمع والدتي وهي تحمّسه أكثر:

ــ اضربها أكثر.

وقد فعل ما بوسعه لإرضائها وإرضاء حقارته، ثم خرج ظانّاً أنه أنهى مهمته.

أمي تعمّدت أن تؤذيني بالكلام، وظنت هي الأخرى أنها أدّت واجباً.

والدي لم يتدخل بعد، أظن أنه ورقتهم الأخيرة لإنهاء المهمة.

* * *

«شاهي» بعد كل ذلك الغياب، جاءت لفترة قصيرة في الصبيحة في غياب والدي وإلياس. كانت حبلى بطفلها الرابع، وقد اعتذرت مني لأنها تأخرت كل ذلك التأخير:

ــ تعرفين بطني أصبحت مرئية وأنا أخجل من أن يراني والدي أو

إلياس هكذا.

ابتسمتُ:

ــ طبعاً تُخفين جريمة.

لم تحب «شاهي» ملاحظتي، ومع هذا علقت:

ــ ما زلتِ كما أنتِ، لا تتغيرين.

ثم وقفت أمام النافذة وأغلقت الستائر، وواصلت:

ــ كيف ستعيشين مطلقة وسط الرعاع، غداً سترين الرجال كيف سيتحرشون بك، وكيف ستحاك حولك الحكايات وكيف ستصبحين عاهرة في نظر الجميع دون أن يرحمك أحد.

ابتسمتُ مرة أخرى:

ــ من قال لك أنني سأظل هنا؟

ــ وأين ستذهبين؟

ــ سأعود إلى فرنسا.

ــ مجنونة أنت!... من لديك في فرنسا لتعودي إليها؟

لستُ بحاجة إلى أحد يا «شاهي»، سأعيش وحدي.

ــ مثل العاهرات.

ــ مسكينة يا «شاهي» (قلتها ثم ضحكت) أنتِ تخفين بطنك عن والدي وإلياس، تريدين أن تقنعي نفسك وغيرك أن أطفالك يأتون

من العدم، وليسوا ثماراً للجنس، لكأن الجنس مهنة العاهرات لا غير، ومن تعيش وحدها عاهرة، ومن تطلب الطلاق من زوجها عاهرة، لقد أصبحتِ مثلهم يا «شاهي»، إننا لا نتقدم خطوة إلى الأمام، إننا نلتف حول أنفسنا في النقطة ذاتها...

لم تقل «شاهي» شيئاً، ظلت صامتة، وقد لمستُ اقتناعها بما قلتُ، ولهذا واصلت:

ــ هل تعرفين، حين تزوجت كنتُ أظن أن كل مشاكلي انتهت ولكنني اكتشفت أنني دخلتُ سجناً فيه كل أنواع العذاب. أنا «باني بسطانجي» التي مُنعت طيلة حياتها حتى مجرد أن تفكر في ذكر، بين ليلة وضحاها أصبح المطلوب مني أن أكون عاهرة في الفراش، أن أمارس كما يمارس هو، أن أسمعه كل القذارات، أن أمنحه مؤخرتي ليخترقها بعضوه، أن أكون امرأة منسلخة الكيان أن أكون نسخة عنه وعن تفكيره... المشكلة تجاوزتني يا «شاهي» ولهذا تطلقت...

لكن «شاهي» لم تعد تنصت، بل بكتْ. ما أدهشني، وأخرسني في الوقت ذاته. ثم راحت تروي:

ــ كنتُ أظن أن كل هذه الأسباب ليست أسباباً منطقية للطلاق. وكأني أصبحتُ أفهم سرّ دموعها، فسألتها:

ــ ألستِ سعيدة مع زوجك يا «شاهي».

فأجابت بصوت خافت:

ــ ربما، إنه «يطعمنا ويكسينا»، ولا يتركنا نحتاج شيئاً لكنه يمنعني

من الذهاب إلى الحمام التركي، ويمنعني من أشياء كثيرة، أمّا في الفراش...

ثم صمتت مرة أخرى، فقلت لها:

ــ واصلي ... واصلي...

فواصلت:

ــ أحياناً أرغبه أنا، فيصدمني، ويتحجج بأنه متعب، وأحياناً أنا التي أكون متعبة، فيرمي بجثته عليّ ويفعل ما يريد بسرعة ثم يدير لي ظهره وينام. بالنسبة له، لست أكثر من وعاء...

قاطعتها:

ــ ولكن زوجك جامعي؟

ــ ليكن، لطالما تحدثتُ معه فقط عن رائحة فمه، أردته أن يستعمل فرشاة الأسنان ولو مرة في اليوم لتزيل من فمه تراكمات الأكل والتبغ، ولكنه كان يثور عليّ، وأظن أنه يرفض تنظيف أسنانه وفمه لأن الفكرة من أساسها اقتراح مني، إنه لا يفكر في القبلة التي يمنحها لي، تلك القبلة التي تجعلني أصاب بالغثيان إلى أن شطبتها من قاموسي الجنسي، ولكنها مصيبتي الدائمة، رائحة أنفاس فمه تجعلني أمرض، أحياناً يقول لي إنه ينسى أن ينظّف فمه، وأحياناً يتهرب بالغضب متى أشعر أنا بالذنب. ثم حين يبحث عن جسدي لا يعنيه أن هذا الجسد كيان يشبه كيانه وأن لي غريزة، ومشاعر، كل ما هنالك أنه يخترقني قبل أن يوقظ شهوتي، يفعل ذلك بسرعة

وأنا بعد «شايحة»[1]، يؤلمني دون أن أشعر بأي متعة ثم ينتهي ويتركني جثة تحتضر.

ـــ أَلَمْ تتحدثا بالأمر؟

ـــ حاولت أن أحدثه مرة، ولكنه غضب، وثارت شكوكه، قال لي من علّمك أن المرأة تشعر بالمتعة، من علّمك هذه الخرافات، قال أيضاً إنه يمارس الجنس حسب شرع الله، وهذا هو المطلوب منه وليس أكثر.

ـــ أهكذا تتنازلين عن حقك؟

ـــ لا أحد قال إن لنا حقاً في المتعة نحن النساء، في الحمام كنتُ أسمع من نساء الزنقة أشياء وأشاركهن الحديث، وتعرفين نساء الزنقة فيهن «المليح والقبيح» بعضهن كن يقسمن أنهن يبلغن نشوتهن بأصابعهن وأنْ لا دخل للرجال لإمتاعهن أولئك النسوة. تعرفين من أقصد، مثل زبيعة زوجة «الكوّاش»، والعجوز «العُكْرِي»، و«الصافية ميسي»، والمجموعة التي تعرفينها. لهذا استغربت كيف طلبت الطلاق من زوجك، كل نساء المجتمع مثلك، كل الرجال يمارسون الجنس مع زوجاتهم «فوق القَشّ»، وكلهم يتلذذون بالعراء مع العاهرات.

ـــ لكننا نختلف كجيل عن جيل «العكري»، نحن جيل الجامعات،

---

(١) تفرز الأعضاء الجنسية سائلاً لزجاً يسهل العملية الجنسية ويجعلها أكثر متعة وكلمة «شايحة» تعني النَشَاف.

والفضائيات، والإنترنت.

ـ لكن الخجل القديم يسكننا، لو أن الله أراد لنا أن نعيش مثل الغرب لخلقنا في أوروبا أو في أي بقعة أخرى تختلف عن بقعة الهم هذه. كلٌ يأخذ نصيبه في الدنيا يا «باني» وهذا نصيبنا.

«شاهي» مستسلمة، مختلفة مجردة من أسلحة السخرية التي كانت تواجه بها الناس، مجردة من حماسها وفرحها وهي تحمل الشموع وتتوجه إلى حمام «دبلوج» لتشعلها مع النسوة أيام صباها وتغني معهن وتطلي جسدها بـ «الطاهرة» لتعود ملساء إلى البيت، سعيدة متقدة بحكايات مجموعة النساء تلك، وتهمس لي: «ليتني أتزوج الليلة، أريد رجلاً، أريد رجلاً...». يومها كنتُ أستسخفها، وأتقزز من كلامها، إلى أن عرفت حضن توفيق وجسده ولغة الحب لديه، ولكنها تعيسة، وبائسة، على الرغم من أنها اليوم تملك رجلاً «يطعمها ويكسيها»، ولكنه رجل لا تشعر بحضوره، رجل ترى ظلاله فقط، آثاره، أطفاله، ثيابه، حذاءه، رغباته، وكأنه شبح يعبرها من أجل ترك بقاياه.

«شاهي» المسكينة!

بثلاثة أطفال ورابع في الطريق، ببيت، بقائمة ممنوعات، بكومة خجل في الأعماق، بكل ما يشبه الحجر الذي يعكر المياه الراكدة.

«شاهي» التي لا تبتسم، خرجت والدمعة في عينيها، أخفت حملها بجلباب طويل، أخفت جريمتها بقطعة الوهم التي تعلقها في داخلها، ستقطع الشارع متوهمة أن لا أحد اكتشف جريمتها،

وسيتوهم الجميع أن حملها نفخة من الروح القدس ولعلَّ ذلك ما يجعل الأكثرية يسمي المرأة الحامل عندنا: «امرأة بروحين». هي الأخرى ستتوهم أن كل أبناء «الأبالسة» الذين يملأون الشارع أبرياء وأتقياء، ولا يتسللون إلى «ماخور الرحبة» أو «ماخور القصبة» لممارسة الجنس وإطلاق سراح أعضائهم وألسنتهم من الكبت اليومي.

وقفتُ أمام النافذة، ورحتُ ألحق «شاهي» بالنظر وهي تمشي مثل بطة مثقلة. الهرة «عقيق» تتشمس في السطح المقابل، وتحت السطح بقليل نافذة تتكدس عليها الثياب والأغطية ككل نوافذ المدينة تبصق صباحاً روائح الاكتظاظ والشبق المكبوت والجرائم الجنسية.

لا يمكن للنساء هنا أن يبدأن يومهن، دون أن ينفضن رائحة النوم وتوابعها خارج بيوتهن من الأفرشة والأغطية، كل شيء يُنْشَر على الشرفات والنوافذ، وصعب بين كل ما ينشر أن ترى حمّالة صدر أو كيلوتاً نسائياً، إذ من العيب أن تفضح امرأة نفسها بنشر علامات أنوثتها على شرفة، مع أن الحروب النسائية عادة ما تتم من شرفة إلى شرفة وخلالها تنشر كل واحدة أسرار الأخرى دون أدنى شعور بالخجل.

يصعب أن تفهم الأنثى هنا أهي فعلاً كائن محتشم، أم كائن ازدواجي تماماً كالذكور.

في حمام «دلهوج» حيث تعودنا أن نتحمم كل يوم خميس باستثناء الفترة التي كنتُ أستحي فيها من «خرجات» صدري، فكنت أستحم في البيت، كنتُ أجد متعة في رؤية أجساد النساء وهنا

عاريات، لا لأنهن أكثر جمالاً بل لأنهن أكثر تحرّراً وهنا تجد النساء اللواتي أتعبهن الكبت فرصة لإفراغ الجراب المثقل بأسرارهن. أذكر جيداً ولم أكن أفهم حينها كيف تقول العجوز «الغُكري» لـ «نجمة» جارتنا مشيرة إلى العلامات الزرقاء على ثدييها:

ــ واش اذّيتي حقك البارح؟

فتجيبها نجمة ضاحكة:

ــ فَلْلّهيني المخلوق البارح!

ثم تنفجران ضحكاً معاً.

يومها كنتُ أظن أن نجمة تعرضت للضرب من طرف زوجها، كنتُ أجهل تماماً طقوس الجنس، وكنتُ أسأل «شاهي»:

ــ ما المضحك في هذا الكلام؟

فتجيب أن «الغُكري» خرفت، وكل شيء يضحكها. لا شيء ظل مستوراً بعدها، شيئاً فشيئاً أصبحتُ أفهم حين تتغامز النساء كلما لاحظت إحداهن زرقة ما تشبه الكدمات في العنق أو في الكتفين أو على الثديين.

أنا أيضاً أصبحت ألاحظ، فأسأل «شاهي»:

ــ هل هو مؤلم؟

ــ ما المؤلم؟

ــ الرجال يقرصون أم يعضون نساءهم؟

ــ كفي عن طرح هذه الأسئلة. عيب.

ــ أيهما عيب طرح الأسئلة أم القرص والعضّ؟

ــ لماذا تسألين عن أشياء ستعرفينها فيما بعد؟

ــ تقصدين متى؟

ــ حين تتزوجين.

ــ ليقرصني ويعضّني الرجل؟ لا لن أتزوج، تزوّجي أنتِ.

ــ إذن كفي عن طرح الأسئلة مادمت تعرفين كل شيء.

ــ أريد أن أعرف فقط لماذا تحب المرأة أن يعضّها الرجل؟

ــ لا أدري، أنا لم أتزوج بعد لأعرف.

ــ وهل المرأة أيضاً تعضّ؟!

ــ قلت لك لا أدري، اغربي عن وجهي أو اصمتي.

قُبلة «إيس...» كانت أجمل قبلة ذقتها في حياتي، تلك القبلة التي شطرتني نصفين.

قُبلَة تستحق أن تُروى في كتاب، بتفاصيل لزوجتها وهدوئها وشحنة الشبق التي تحملها، وبطئها وحلاوتها، ونسبة السحر فيها؛ قبلة تلتها عضة خفيفة للشفاه، تقول الشبق لا أكثر، وتعبر الخلايا المنتشية دون أن تترك خلفها لا زرقة، ولا خضرة، ولا سواداً، فقط مساحة شاسعة من اللذة، وشاسعة بحجم مدِّ النظر.

على نافذة تُطِلُّ على شارع «شوفالييه» مجرد التفكير في «إيس...» يعني خيانة فاضحة. ولكن قبلته تلك...!

أمِنَ الممكن أن أُشفى منها، وهي التي جعلتني أكتشف الشهوة وأختار درب التجريب؟

قبلة «إيس...».

شفاه «إيس...».

غابة «إيس...».

«شوفالييه» الضيق لا يعرف معنى القُبل المثيلة، يعرف قُبلَ الهيجان و«الخبط عشواء» التي تخنق الشفاه كالموت.

كيف لي اليوم أن أشفى من تلك الحمى التي عبرت بي درجة حرارة الشمس وألقت بي في الجنة لبعض ثوانٍ، ثم ألحقت بي أجمل اللعنات لأبحث عنها من جديد بين الشفاه!

هنا فوق الأرض التي ضاع عليها آدم وحواء بتهمةٍ ما لا نعرف تفاصيلها بالضبط، ضعتُ أنا الأخرى، بين رجلين أحدهما أشتهيه والثاني أحبه، وآخرين لا أعرف لهم موقعاً من الإعراب.

أحنُّ إلى «إيس...».

أم أحنُّ إلى توفيق!

«شوفالييه» لا يعطي إجابات عن الحب، الغبار يعلو الوجوه، الأصوات تبيعك أي شيء، المنحدر الذي يؤدي بك إلى «شارع فرنسا» يذكرك بذكورة الشارع وأنوثة الاستهلاك «الشيفون» النسائي يملأ الأرصفة، الشارع مكتظ بالمشاة من سوق العصر إلى «لا بريش». الاكتظاظ

ميزة قسنطينية بامتياز. ومع هذا لن تفهم لغة هذه المدينة أبداً.

لن تفهم متى تحب، ومتى تكره، متى تحزن، ومتى تفرح، متى تحميك ومتى تخونك، متى تكون معك ومتى تكون ضدك، ومع هذا ستعرف مسبقاً أن الأمر حين يتعلق بالحب فلن تشفق عليك أبداً، ستقتلك، وكأن «إلياس» هو أحد جلاّديها، وليس غريباً أن يكون جلاّدوها مثل «إلياس» الجميل الملامح، الأشقر، المضيء، والذي تراه زوجته أجمل رجل في الكون. والذي تراه والدتي نبياً.

بسرعة عرفتُ من تكون زوجة إلياس، فقد جلست معي لبعض الوقت مجاملة.

قالت لي إنها تعرفت إلى إلياس في المستشفى حين كان يزور خالتي وردية، وكانت تزور والدتها، أحبها فقرّر فوراً أن تكون زوجته.

قالت: حين تأهبتُ للخروج لحق بي، فقال لي: «شوفي يا بنت الناس أنا مانيش ولد حرام، عجبتيني، وحاب انجي نخطبك» نيته كانت «صافية» ولذلك أحببته، ولذلك تزوجنا.

ــ وهل ما زلت تحبينه؟ (سألتها).

فضربت على صدرها وقالت:

ــ يا خلاَيَ... ومَالاَ تتمسخرو؟

أعرف أنّ السؤال كان قوياً عليها، في مجتمعنا من العيب أن نسأل

امرأة متزوجة هل تحب زوجها أم لا حتى حين تبكي وتشتكيه، من غير الممكن أن تقول أنها تكرهه أو توافقنا إذا ما قلنا إن زوجها سيىء. في الوقت نفسه ـ تماماً مثل زوجة إلياس ـ لا يمكن لامرأة أن تعترف بأنها تحب زوجها!

الاعتراف بالحب شبهة، والشبهة تعني ضلالة، والضلالة ـ والعياذ بالله ـ تقود إلى النار. ما أخطر الاعتراف بالحب إذن، إنه كالزنى، كإحدى الكبائر، أو كالقتل!

سألتها مرة أخرى:

ـ كيف هو إلياس معك؟ هل يعاملك جيداً؟ هل يقول لك كلاماً جميلاً؟

نظرت إليّ بدهشة وكأنها تشك في صحة عقلي وقالت لي:

ـ أنتم تاع فرنسا رَايْحَلْكُم شويًا.

وقامت مستأذنة.

اعتذرتُ منها وشرحت لها أنني أسأل فقط من باب الاطمئنان.

وفي الحقيقة كنتُ غير ذلك، إذ كنتُ أسأل لأعرف الوجه الآخر لإلياس، الوجه الذي لا أعرفه.

الوحدة قاتلة في بيتنا. وغياب «شاهي» عنه حوله إلى بيت للموتى، أمي في غرفة المعونة تعمل دائماً كما تعودناها، والدي في عمله لا يعود إلا مساءً، وإلياس أيضاً، أمّا زوجة أخي فهي الشبح الوحيد

فيه، أسمعها تدخل وتخرج من غرفتها، أسمع جلبتها في المطبخ، ولا أراها، وفي المساء، تعتكف في غرفتها. وقد طلبتُ منها أن تبقى معي ذات مساء لنتحدث قليلاً فقالت لي: إلياس لا يحب!

فسألتها: وأنتِ ماذا تحبين؟

فقالت مبتسمة بخبث: يا أختي... «خاجْتُه»!

لقد كنتُ أشبهها في بداية زواجي بـ «مود...»، إذْ أعرِفُ تماماً هذا الدور، وأنا متأكدة أنه سيملّ منها ذات يوم، وسيبحث عن «ليلى» أخرى لتسليه في ماخور «الرحبة» أو ماخور «القصبة» أو بين بنات الهوى الكثيرات على طريق «بوالصوف» و«المنطقة الصناعية».

قسنطينة توفق تماماً بين معادلاتها الحياتية، تأخذ منك حقوقك بيد، وتعيدها لك مسممة بيد أخرى.

في الليل لا أنام، أفرد أوراقي وأكتب ما أسميه رواية، وبطبيعة الحال، لم أكن أعرف أي نوع من الرواية أكتب، هل أكتب نفسي، أم أكتب محيطي، أم أكتب الآخرين، ثم أروي قصة لنفسي لأتسلى.

يجثم الليل على قسنطينة وكأنه محارب متعب، يلقي بدرعه وأسلحته وعرقه ووسخه ومخاوفه وسيفه الملوث بالدّم على هضباتها ومنحدراتها، فتتحوّل إلى كائن مختلف.

ليلاً، قسنطينة مدينة متوحشة لا تحسسك بالألفة بل أحياناً تزداد توحشاً، فتشعرك أنك فأر في مصيدة أو يتيم بلا أهل، أو أعمى

تخونه الرؤية.

كل شيء في هذه المدينة يتحوّل إلى سؤال، ولكن سؤالها الأكبر هي من تكون؟ ولماذا تأخذ الأشكال كلها والأدوار كلها؟

من يفهم هذه المدينة؟

من يفهم صمتها المخيف؟ من يفهم جلادها؟

من يفهم حريمها الظالم والمظلوم؟

من يفهم ماضيها وحاضرها؟

من يفهم نهمها لاستهلاك البشر؟

لأول مرة، وأنا أطل على شارع «شوفالييه» ليلاً، أشعر بالنقمة على هذه المدينة، لأنها اغتالت كل الأشياء الجميلة فيَّ وحولي، وحول من حولي.

دوائر من النقمة، على دوائر من الغضب، على دوائر من الرغبة في مغادرتها إلى الأبد.

منذ سنة، كانت أقل توحشاً، تلك كانت مشاعري اليوم أجدها تزأر في وجهي بدون سبب.

يدخل إلياس، يفاجئني وهو يفعل ذلك دون أن يطرق باب الغرفة، ينظر إليّ بعينيه اللتين تهبّ منهما عاصفة ثلجية، وينسى أن يلقي التحية كما العادة، لكنه يسألني:

ــ لماذا تسهرين إلى هذا الوقت؟

أجيبه وأنا أنظر إليه مباشرة في العينين:

ــ إنني أكتب.

فيبدو أن الأمر لا يعجبه، إذ يعلق ساخراً:

ــ لِمَ لا تفعلين شيئاً ينفعك؟

فلا أجيب.

يخرج ويغلق الباب. وكأنه ألقى بحجر ثقيل في أعماقي. عكَّر كل مزاجي، وقلب السكينة التي كنتُ أشعر بها إلى بركان ثائر، وقطع حبل أفكاري فيما كنتُ أستمتع بالكتابة ومسار القصة التي كنتُ أتخيل.

رميتُ أوراقي واستلقيتُ على الفراش.

* * *

حين فتحت عيني، وجدتُ بياضاً يحيط بي من كل جانب، وجدراناً تختلف عن جدران بيتنا في «شوفالييه». ورائحة أعرفها تماماً، حاولت أن أقوم فلم أستطع، قدماي ترفضان الحركة تماماً، ورأسي ثقيل... ثقيل... ثقيل جدّاً.

الرجل الذي أمامي لا أعرفه، رجل طويل نوعاً ما، بعينين خضراوين، تبدوان أقل خضرة وراء نظارتين بزجاج يكاد يكون ملوناً.

سمرته خفيفة، ابتسامته بدون شك أراها لأول مرة... لكنه يرتدي مئزراً أبيض!

ـ صباح الخير «باني» (قال).

ـ صباح الخير.

ـ هل تشعرين بتحسن اليوم؟

اندهشت من سؤاله، فسألت:

ـ أتحسّن ممَّ؟

لكنه لم يجب، تحسس نبضي وقال:

ـ إنك في حالة جيدة.

كان يتحدَّث عن شيء لم أفهمه:

ـ هل حدث لي شيء البارحة؟

ـ لا ليس البارحة.

ـ لقد كنتُ في بيتنا البارحة، وقد نمتُ متأخرة دون أن يكون بي شيء.

ـ هذا ما أسمعه منك دائماً، علينا أن نتفق يا «باني» أنك لن تغادري هذا المكان، ما دمتِ تصرّين على حكاية واحدة تروينها لي في كل مرة بطريقة مغايرة.

انتفضتُ في مكاني وصرخت:

ـ ما هذا المكان؟ أين أنا؟ ومن تكون أنت؟

ــ إهدئي يا «باني»، أنا صديقك سليم.

ــ لكنني لا أعرفك، أنت لست صديقي.

بالطبع لم يكن صديقي، لا أذكره ولا يعني لي اسمه شيئاً.

ــ لكنني طبيبك منذ أكثر من سنة.

ــ منذ سنة؟ هل تريد أن تدفع بي إلى الجنون، أنا عدتُ من فرنسا منذ شهر تقريباً، والبارحة فقط كنتُ في بيتنا كتبتُ حتى ساعة متأخرة ثم نمت.

اقترب بهدوء مني، ثم قال لي وهو يركز نظره عليّ:

ــ لنفترض أنك صَحِ، علينا أن نحل مشكلتي إذن، إنني أراقب حالتك منذ أكثر من سنة، أزورك يومياً، ويومياً كنا نتجاذب أطراف الحديث وأظنني أعرف عنك كل شيء.

كان هادئاً.

هادئاً جداً، وخضرة عينيه مع ابتسامته أكثر من مغرية. حتى شعرات الشيب المزروعة بانتظام على شعره أعطته وقاراً جميلاً، حتى قامته فيها بعض الإثارة.

ــ لكأني فعلاً أعرفك (قلتُ: وأنا أستعيد بعض هدوئي)، إنك تشبه خالد ابن عمتي زهوة، لكنني لم أره منذ سنين، فعلاً إنك تشبهه.

ــ يا للصدف، وأنا اسمي خالد سليم على أوراقي الرسمية.

ــ أين كنتَ البارحة؟ أقصد، هل كنت هنا، وأنا هنا؟

ــ نعم، حتى السادسة مساء، غادرتك وأنتِ في وضع حسن.

ــ هذا يعني أنني في مستشفى.

ــ نعم، إنك في مستشفى قسنطينة الجامعي، في قسم الأمراض النفسية.

كان يقدم لي الصدمة تلو الأخرى بهدوء وتأنٍّ، وكأنه تعمّد ذلك لكنه في الوقت نفسه أراد تخفيفها:

ــ وأنا وأنتِ صديقان جداً لأنك مريضة غير عادية.

قصفت رعود في رأسي، فجلست أبحث عن سكينة ما، أمسك برأسي بين يدي:

ــ ما الذي يحدث لي يا ربّ؟

ــ لا شيء، كلنا نمرّ بظروف صعبة، لكنها تمرّ:

ثم نظر إلى ساعته، وأردف:

ــ سأزور مرضاي، ولكن لا تفكري كثيراً، سأعود بعد ساعة ونتحدَّث.

* * *

حين عاد كان في يده جريدة، وحزمة من الأوراق وضعها أمامي، نظرت إليه، ولم أقوَ على طرح تلك الأسئلة التي جالت في داخلي.

أخذتُ الجريدة، فتحتها على صفحتها الأولى فلم أفهم شيئاً، العنوان الكبير متعلق بالعراق والأمر لا يعنيني كثيراً في ظروفي تلك.

ـ إنها صحيفة اليوم (قال):

رفعتُ نظري إلى تاريخ اليوم، وصُدِمتُ، إنه العاشر من حزيران/ جوان سنة ٢٠٠٣!

ـ كيف لي أن أصدّق الذي يحدث، أذكر البارحة جيداً، كانت ليلة هادئة من ليالي الربيع من سنة الـ ٢٠٠٠. نظرت إلى سليم وسألته:

ـ ما الحكاية بالضبط؟ أنا هنا منذ سنة، ولكن ثلاث سنوات سُرقت من عمري حسب تاريخ هذه الجريدة، هل أنا فاقدة للذاكرة، أم أن حالتي أكثر تعقيداً، هل أعاني من الخرف المبكر؟ أم من مرض ما آخر؟

جلس قبالتي وبدأ يسرد:

ـ منذ ثلاث سنوات كنتِ تعيشين حالة غيبوبة كاملة حالتك من الحالات النادرة، عشت سنين على تلك الحالة، ثم عشت سنة في شبه غيبوبة بمعنى أنك مستيقظة ولكن مع غياب كلي عمّا يحدث حولك، وكنت تعانين من اكتئاب حاد ما جعلني أستدعى لمتابعة حالتك، لقد كتبتِ هذه الأوراق بين فترات متقطعة وكنتِ تخفينها عندي كلما شعرت بحالة الغياب وهي تقترب منك.

ـ هل تعرضتُ لحادث؟ (سألته):

ـ يؤسفني أن أخبركم أن بيتكم في «شوفالييه» تهدّم إثر الأمطار الغزيرةِ التي شهدتها قسنطينة كما كل الوطن قبل ثلاث سنوات، ليلتها أنقذتِ وأحضرتِ إلى المستشفى.

ـ وأفراد عائلتي (سألته وأنا أرتجف).

ـ كانت ليلة خميس، وكانوا كلهم في عرس لأحد الأقارب.

ـ إذن لا أحد مات منهم.

ـ الحمد لله، لا أحد.

ـ حتى أنا لم أمت.

صمتُ برهة قاسمني فيها سليم صمتي، ثم سألني:

ـ علينا أن ننشّط الذاكرة لتستعيد حيويتها.

ـ أنا تزوجت «مود...» منذ سنة وبضعة أشهر. هل فعلاً حدث هذا؟

ـ أعطيتني هذا الاسم لرجل اسمه الحقيقي «مولود بلعربي» شاب جزائري قُتل في باريس، في «مونبرناس» سنة ١٩٩٩، تعرّض للضرب المبرح من طرف شبان فرنسيين عنصريين، مات أعزب، متأثراً بجراحه وهو في الأربعين من عمره.

ـ «مود...» ميت ؟

ـــ عجيب أنك أعطيتني قائمة من الأسماء كلهم ميّتون عدا الفنان توفيق بسطانجي الذي يعيش في فرنسا منذ سنوات.

ـــ كيف؟ كلهم ميّتون؟ و«إيس...» يهمني «ايس...».

ـــ شاعر لبناني من أصل فلسطيني، اغتيل في شوارع بيروت برصاص مجهول، اتضح فيما بعد أنه لم يكن المقصود بالقتل إذ لم يكن له توجه سياسي معين، كان من أولئك الشعراء الذين يعتبرون الشعر قضية إنسانية.

ـــ غير ممكن... ما تقوله غير ممكن؟ «مود...» ميت، و«إيس...» ميت؟

ـــ ماري عون أيضاً، عازفة بيانو لبنانية، وُجدت في شقتها في باريس منتحرة بجرعة زائدة من الحبوب المنومة.

ـــ إنك تخيفني، كيف عرفت عن ماري أيضاً؟

ـــ الأسماء مدوّنة في هذه الأوراق، بخط يدك، وقد طلبت مني أن أتصل ببعضها لأعرف صدق الأحداث التي عشتها، ولمجرد أن اكتشفت أن «مود...» شخص ميت، دفعني الفضول لأكتشف البقية وقد تفاجأت أن جميعهم ميّتون باستثناء توفيق فعلاً.

ـــ و«شرف».

ـــ شرف عبد الساتر صحافي لبناني مات في حادث سيارة مع صديق جزائري في منعرجات طريق جيجل منذ ثلاث سنوات بالضبط.

ـ هو الآخر؟

ـ الغريب أن جميعهم قطنوا لفترة في باريس، وأنتِ لم تزوري باريس ولا مرة.

ـ إذن أنا لست متزوجة!

ـ بلا، كنتِ متزوجة من مهدي عجّاني وقد ترملتِ قبل فترة قصيرة من الحادث، والغريب أنه لم يذكر أبداً بين قائمة الأسماء التي دوّنتها.

ـ مهدي عجّاني؟ ومن يكون هذا؟

ـ مهندس التحق بالشرطة السرية ومات مقتولاً على يد الإرهاب في ربيع سنة ٢٠٠٠ في «رأس القنطرة» وقد كنتِ معه ولكن الرصاص لم يصبك.

ـ ولكن كيف لكل هذه الأحداث أن تُمحى من ذاكرتي، لتسكنها أحداثٌ أخرى مع أناس ماتوا؟

ـ هناك أشياء تفوق قدرة طبيب عادي ليستوعبها.

ـ لكنك لست طبيباً عادياً، إنك طبيب مختص.

ـ هناك شيء في حكايتك يفوق الطبيعة، وأنا لم أتوصل إليه، سفرك أثناء غيبوبتك، تواصلك مع الأموات، الحياة الأخرى التي عشتها، كل شيء أصَدِّقُه منك، لكني لا أجد تفسيراً لما حدث.

* * *

في الثالثة بعد الظهر، دقَّ الباب، فإذا بإلياس يدخل تتبعه والدتي، و«شاهي».

بكيتُ كثيراً، ولم أفهم لِمَ اجتاحني الشوق مرة واحدة، ولِمَ أردتُ أن أحضن الجميع.

والدتي بكت، «شاهي» بكت أيضاً. أمّا إلياس فقد ظلّ صامتاً، فيما لمعت دمعة في عينيه.

وقد لاحظت أنه يعرج قليلاً، اقترب من النافذة، وراح ينظر إلى السماء.

سألتُ عن الجميع، ثم سألت إلياس:

ـ كيف هي زوجتك؟

استدار بعينين أقل قساوة، أقل توحشاً، ذابلتين، تمتد فيهما حقول من القمح الأخضر.

نظر إليّ مستفهماً، ثم تبادل النظرات مع والدتي و«شاهي» ثم قال:

ـ تعرفين أنها ماتت منذ سنوات.

ـ منذ سنوات؟

ـ ما الذي ذكّرك بها، كنتما لا تتفقان؟

ـ ولكن كيف ماتت؟

ـ احترقت!

قال ذلك وراح ينظر عبر النافذة إلى السماء.

بعض أسئلتي كان يجب أن أكتمها.

بعض أسئلتي كان يجب أن أتركها ليوم آخر، أن أغلق عليها في قمقم قلقي، وننام معاً ليلة مفتوحة على احتمالي الوهم والحقيقة.

ثلاث سنوات طارت من عمري.

سنة من المعاناة مع «مرد...» لم تكن سوى وهم، قصة حب في بدايتها مع توفيق لم تكن سوى وهم، «إيس...» ومعبري نحو الشهرة، كان وهماً هو الآخر، و«مهدي عجاني» هذا الذي أجهل عنه كل شيء، كيف تزوجته، وكيف مات، ولماذا يتموقع خارج ذاكرتي؟ وهؤلاء الذين تعجّ بهم سنتي الوهمية، من أين جاؤوا واقتحموا غيبوبتي وحوّلوا سكينتي المرضية إلى أيام صاخبة.

الغرفة حولي نظيفة وبياضها يوحي بـ «روحانية» المكان، خالد سليم غادر المستشفى، المساء جاء زاحفاً على غير عادته معسكراً في الخارج بقباب من الخوف.

أنا، أتأمل غابة «جبل وحش» وقد كستها الزرقة الداكنة. السنونوات تتقاطع مع طيور «البلاّرج» تتهامس فيما بينها بحكايات سرّية، وهكذا هو المساء القسنطيني هو مزيج من تلك الأشياء التي تحب، والأشياء التي تسقط فجأة كالنيازك عليها. ربما لاحظت ذلك مئات المرّات قبل ذلك، ولكن غياب خالد سليم اليوم كان له طعمه المرّ في قلبي.

تناولتُ كومة الأوراق التي تركها بين يدي، وقرأتها إلى ساعة متأخرة من الليل، ورغم نعاسي الشديد قاومت النوم خوفاً من أن أستيقظ في الغد على حقيقة جديدة، أو على وهم جديد.

قرأت كل تلك التفاصيل التي كتبتها بخط يدي، بعضها عشته في سنتي الوهمية مع قائمة أسماء أصدقائي ومعارفي في باريس، بعضها يعود بي إلى ذكريات الجامعة، وبعضها الآخر عن خالد سليم وعلاقتي به. فوجئتُ أنه صديق جداً وأن خلافاتي معه تتبعها اعتذارات وتوسلات، إذْ وجدتُ أكثر من رسالة اعتذار له بتواريخ متباعدة في الغالب ولكنها فعلاً حدثت خلال سنة.

كل شيء كان بخط يدي، ولكن بعض الأحداث تعرفت عليها لأول مرة، خالد سليم كان له موقع خاص بين سطوري، أكاد أقول إنني أحببته، ولكن كيف لي أن أفعل ذلك في الوقت ذاته الذي كنتُ فيه مغرمة بتوفيق.

كيف كنت أغادر واقعي، وأتسلل عبر ممرات غيبوبة قدرية لأصل إلى عالم آخر، إلى مدينة أخرى، إلى أناس لم أعرفهم في حياتي السابقة. أية قوة عجيبة تلك التي كانت تحمل روحي لتلتقي بأرواح أخرى وتعيش في لفيف الحياة الأخرى بكل ذلك الانسجام؟

لماذا في لحظات صحوي لم أعش ما عشته اليوم، ولم أعِ ما حدث لي، لماذا أدوّن ذلك في أوراقي، فيما ترفض ذاكرتي تماماً أن تحتفظ بلحظات الصحو والغياب معاً، وتنقذ روحي من كل هذا الضياع.

كنتُ أحتاج إلى ليلة صفاء أفرغ فيها كيس رأسي وما يحمل

على طاولة كبيرة، وأختار ما يحق له البقاء وما يستحق الكب، ليلة صفاء من الغريب أنها ليست تلك الليلة، فقد كنتُ مثقلة الرأس، مثقلة الجسد، يحيط بي شيء يشبه غبش الليل يمنع عني الرؤية.

كثير من التعب أيضاً أشعر به، لكن مع فائض من الشعور بالوعي. وقد كان ذلك قمةً في إيلامي لأن حواسي كلها أصبحت تعمل.

مشكلتنا مع الحواس عميقة، ولا أدري كيف لمجتمع ضليع في اختراع وسائل البتر، أنه لم يخترع بعد آلة تبتر الحواس كلها... حواس امرأة مستيقظة ليلاً، وتسافر عبر مخيّلة نشيطة إلى سفوح الشهرة، إلى قلاع الكراهية، إلى منابع الحقد، إلى دروب الاختيار.

في مستشفى يقابل «جبل وحش» يُعتقل وحش الشهوة في غرفة ضيقة، بيضاء ونظيفة يسمى أنا...

أنا التي لا أصدق تماماً حادثة تهدم البيت، وحادثة الموتى، والأرواح، فعمق السؤال متعلق بسنتي الوهمية وما حملته من محتوى.

ما علاقة البيت بكل ما حدث لي؟

ما علاقة المطر؟

ما علاقة «إيس...» بكل ما حدث؟

ما علاقة «مود...»، ما علاقة توفيق، ما علاقة «شرف»، وما علاقة

خالد سليم بالحكاية كلها؟ حقيقة، هم جميعهم رجال عبروا حياتي.

لكن، هناك فرق شاسع بين أن توقظ الحواس وأنت ميت، وبين أن تخمدها وأنت حي.

إلى هنا فكرت، ثم سرقني النوم، حتى أيقظتني الشمس في اليوم التالي.

* * *

ـ هل أحببتك؟

أسأل خالد سليم قبل أن أردّ عليه التحية الصباحية، فإذا به يبتسم ثم يكاد يضحك وهو يجيبني:

ـ تسألينني دائماً هذا السؤال؟

ـ كيف تريدني أن أناديك: خالد أو سليم؟

ـ لا مشكلة لديَّ، أنا أتجاوب مع الاسمين.

ـ لم تجبني، هل أحببتك، أوراقي تبوح بتورطي في شباكك.

ـ لا، أنا أصغرك بأربع سنوات، وهي السنوات القليلة التي جعلتك ترفضين الانقياد وراء عاطفتكِ، أنت بحاجة إلى رجل آخر يشبهني ولكنه ليس أنا، تريدينه أكبر منك بأربع سنوات تماماً مثل «إيس...» أو «توفيق».

ــ هل تعرفت إلى توفيق؟ إنه من عائلتي؟

ــ لا لم أتعرّف عليه لكنني أعرف أنه من الشق الثري للعائلة، هل يزور قسنطينة مراراً؟

ــ لم أعد أذكر متى رأيته آخر مرة، فقد تقاسمنا الفراش منذ أيام فقط.

اعترتنا لحظات من الصمت بعد هذا الاعتراف الخطير ثم أردفت:

ــ أتحسر على كل تلك الأيام التي عشناها معاً، هل يمكن للمخيّلة أن تسخر من الجسد بكل هذا القدر.

ــ بالعكس، المخيّلة هي جزؤنا الذي لم يُدَجن بعد، أمّا أجسادنا، عقولنا، عواطفنا، أحلامنا، كلها أودعت سجون التدجين.

ــ كنتُ منطلقة يا سليم، وسعيدة لأنني عرفت أي طريق أسلك، وقد تخلصت من قوقعتي العائلية، من أسمال المجتمع، وعرفت كيف يمكنني أن أتصرف كيف يمكنني أن أختار، وأن أختبر نفسي، وأختبر الآخر وأخرج من التجربة بقرار سليم لا يورطني في علاقة فاشلة، أو سلوك أندم عليه، ولكن ها أنا أصحو على حقيقة مخيفة ومرعبة تقول إن ما حدث لم يكن أكثر من لعبة مخيّلة، أيعقل هذا؟

ــ نحن مجتمع يحتاج إلى من يوقظ مخيّلته.

ــ كيف تتحرك مخيّلة مجتمع نساؤه صامتات، تضيع أصواتهن في مشادات عائلية تافهة، أو في أفراح لا معنى لها لزيجات فاشلة حتى النهاية.

دعيني أشرح لك شيئاً مهماً، نحن شعب تعودنا على القمع ولهذا يستحيل أن نتحرر دفعة واحدة، يلزمنا ثورة تتوارثها أجيال لنتخلص تماماً من نظام السجون الذي نعتبره نمطاً لحياتنا.

ـ ها أنت تخيفني مرة أخرى، فهذا يعني أن حياتي ستذهب إلى الجحيم، وأنني لن أستنشق الحرية التي أريد إلّا بمقدار حجم مخيلتي.

ـ ولكن مخيلتك شاسعة، شاسعة يا «باني» بلا حدود، بلا فواصل، بلا نقاط.

ـ ولكنني أنام مرعوبة من هذه المخيلة التي تعبث بأيامي، وترمي بي حيناً في الجنة وحيناً آخر في النار. أنام مرعوبة، وأكتب على إيقاع الرعب نفسه.

نصمت، ثم نبتسم، ثم يهزّ كتفيه لأنه لا يجد شيئاً آخر يقوله، فينظر إلى ساعته، ويغير الموضوع:

ـ كل مرضاي مُملّون، ما عداك أنتِ.

ـ هذا يعني أنك تريد أن تذهب؟!

ـ هذا يعني أنني لا أريد أن أذهب، ولكن وقت مروري على مرضاي حان.

* * *

بعد أسبوع قرّر خالد سليم أن أغادر المستشفى، وأن أواصل علاجي عنده حسب مواعيد محددة. حين خرجت، لم أكن أعرف إلى أين سنتوجه، ولم أشأ أن أسأل إلياس الذي بدا أكثر شحوباً وأقل قسوة.

كان يعرج وقد قطعنا «قنطرة الحبال» بتأنٍ، ومع هذا لم أسأله ما به، ولِمَ أصبح أقل قسوة؟

قسنطينة هادئة ومسالمة. الجسر يهتز قليلاً كأغنية مسائية لطفل ينام. وادي الرمال يصلي في صمت، وروحي ترفرف.

حين بلغنا أول القصبة أوقف تاكسي وطلب منه أن يوصلنا إلى «فَنْدَق الزيت»، وبسرعة فهمت أننا متوجهون إلى بيت العم محيي الدين رحمه الله، بيته المكوّن من غرفة ومطبخ وتاريخ طويل من التضحيات من أجل الفن.

الطابق الأرضي للفَنْدَق كله حوانيت مكتظة، ألغت تماماً فكرة السهرات الماجنة التي كانت تقام فيه منذ زمن بعيد.

وأنا أعبر باحة «الفَنْدَق» تذكرت ما كان يرويه لي العم محيي الدين صوته ملأ أذني، قصصه الغريبة عن «فندق الزيت» وعن عالم الفنانين.

توفيق أيضاً يعرف كل تلك القصص. روى لي بعضاً منها لكنني لم أعد أذكر أقبلَ خط الوهم حدث ذلك أم بعده؟

توفيق في الحقيقة هو الشخص الوحيد المستثنى من قائمة «أمواتي»

وحتماً هناك سرّ خلف استثنائه ذاك.

فتحت والدتي الباب، وانبثعت رائحة الخبز الساخن من الداخل طازجة وشهية، وحين دخلت اصطدمت عيناي مباشرة بصورة عمي محيي الدين شاباً وإلى جواره «محبوبة». إنها فعلاً كما قال توفيق «تشبه نساء «رينوار»». في حضرة كل تلك الرهبة للحضور المعني لعمي محيي الدين ومحبوبة، شعرت بالضيق، أنا التي أحب الوحدة كثيراً والاختلاء بنفسي، لن أجد فرصة لتحقيق متعتي تلك في هذا البيت.

كانت الغرفة شاسعة ومرتبة، وعلى شاشة التلفزيون صور عن «حرب العراق».

بعض الأسئلة...

بعض الأجوبة...

ثم استلقيت على إحدى الكنبايات. فيما جلس إلياس على الكنبة المقابلة وراح يتابع الأخبار.

في المساء اجتمع أفراد عائلتي كلهم، أنا، شاهي، إلياس وأمي وأبي، اجتمعنا حول صحن «الرَّشتة» وتقاسمنا قطع اللحم بالتساوي كما كنا نفعل سابقاً.

لاحظت أن والدي أكثر شيباً وأقلّ حديثاً. والدتي تحدثت كثيراً، وأخبرتني أننا سنحصل على سكن قريباً في «ديدوش» أو في «الخروب» فهذا ما يتردد هذه الأيام في كواليس البلدية بشأن

منكوبي الفيضان. أبديتُ سعادتي حتى لا أكسر متعتها وهي تمارس هوايتها المفضلة «سرد الأقاويل وحكايات الزنقة». ما تفتقده أمي في «الفندق» حتماً راحتها في التنقل وحكايات الجيران، وأقاصيص «حمام دبّاغ»، وعالم «الدلالات»، و«سوق العصر»، و«شارع فرنسا» والحي بأكمله الذي كان فيه حيوية أكثر. في الفندق عالم الرجال هو الطاغي، شبابيكنا حتماً يجب أن تظل مغلقة لأنه من العيب أن تطل امرأة على باحة يؤمها رجال.

«شاهي» ظلت صامتة، وقد كان من غير الممكن أن أسألها عن عائلتها وحياتها مع زوجها أمام والدي وإلياس.

ولكني مع هذا وجدتُ فرصة لأقف معها في المطبخ لدقائق وأسألها بشكل عام عن وضعها فأجابت: «وأنا، الحمد لله» وقد سألتها عن عرج إلياس فأجابت أنه أصيب برصاصة في الساق حين كان في الخدمة الوطنية «الثانية» حيث أعيد استدعاء الشباب لأداء الخدمة الوطنية كطريقة لدعم الجيش ومكافحة الإرهاب خلال عملية عسكرية قام بها الجيش في جبال «القل»، وأخبرتني كيف أن الطب العسكري مهمل وبلا رحمة فقد نزعت الرصاصة من ساقه ولكن لم يعتنِ بها الطبيب جيداً حتى تعفّنت وكادت تقطع لولا عودته إلى البيت حين ساءت حالته وتدخل أحد أصدقاء والدي لمعالجته عند طبيب قريب له.

ــ ظل يتعذب قرابة الستة أشهر مرمياً في المستشفى العسكري، ثم في الثكنة، ثم أعطي إعفاءً وأُرسِلَ إلى البيت. تعلّم الذُلَّ في الثكنة، فعاد كما ترين «نُصّ عَبْد».

ــ وزوجته كيف ماتت؟

ــ احترقت في بيتنا القديم، هبّت النار في «الله‌ندورتها» حين كانت تطهو الخبز، ظلت في المستشفى ثلاثة أيام ثم ماتت، فقد كانت حروقها عميقة. بين «العسكر» والموت تغيّر إلياس، انكسرت عنجهيته، وبرزت في سلوكه طيبة تثير الشفقة.

ــ ومهدي عجاني من يكون؟

ولكن والدتي دخلت تستعجل «شاهي» لأن زوجها جاء ليأخذها إلى البيت.

لم أعرف ليلتها من يكون ذلك الرجل الذي تزوجت، لكنني أطلقت العنان لمخيلتي قبل أن أنام وطرت على بساط الشهوة إلى توفيق، أردته أن يطوّقني أن يقبّلني، أن يهدئ من روع الجسد قطعة قطعة ويلعن الوحدة والشعور بالاغتراب الذي يرافقني.

بالفعل أغمضتُ عينيّ وأنا أتمنى أن أستفيق في شقته الباريسية، مبعثرة في سريره بين جسده وشراشفه. وقد كان صعباً أن أحلم على ذوقي تلك الليلة، شخير والدي كان عالياً جداً.

* * *

كنتُ ألتقي خالد سليم أحياناً في مكتب بالمستشفى وأحياناً في مطعم «دار السلطان» في إحدى «الزَّنق» المتفرعة من «شارع فرنسا»، كان المطعم بمثابة مخبئنا السري الذي نقول فيه كل

الممنوعات، نتناول فيه الغداء على إيقاع موسيقى «زمفير» الهادئة، الموسيقى التي لا تتغير أبداً، والهدوء نفسه الذي لا يكسره زوار غيرنا، وكأننا زبائن المطعم الوحيدون وفي خلال لقاءاتنا المتكررة تلك عرفت الكثير عن «مهدي عجاني»، وعن والدي، وإلياس، و«الزُّنقة»، وقسنطينة وجزائر بوتفليقة والوئام المدني وزمن الانفتاح.

كنا نحكي ونضحك، وكان كل خوفي أن أتعلق به ليصبح القشة التي يتشبث بها الغريق، لكنه كان يحافظ على اتزانه، ويبدو لي في كل مرة نلتقي فيها يزداد وقاراً وهيبة، ولعلّي خلال تجربتي الوهمية مع الرجال تعلمتُ درساً أفادني وهو أن لا مكان للحب الجنوني فوق الأرض وحين يكون جنونياً فهو حب القليلي الخبرة.

كان يكفيني بعد تجربتي مع «إيس...» و«شرف» و«توفيق» وقلة الرجال الذين عرفت أن أعرف ما معنى الاكتفاء وأن الرجال لا يستحقون منا السهر والتفكير والتضحيات والبكاء، وبمعنى أكثر اختصاراً يتضح لنا أن حياتنا ليست مرتبطة برجل.

حين نبكي على الرجل الأول الذي نفقده، ثم على الرجل الثاني، ثم الثالث، نكتشف أن العملية مرهقة، وسخيفة، وندرك أن الحياة قد لا تتوقف عند حدود رجل.

وحين نستسخف جراحنا، فهذا يعني أننا تجاوزنا مرحلة التفكير بعواطفنا وأن عقولنا بدأت تشتغل.

الحديث مع خالد سليم شيّق ومثمر، ولكنها تلك المدينة البائسة

المقيّدة دوماً إلى عقارب ساعة، ينتهي الوقت، فأعود إلى البيت لأجد والدتي تفتل الكسكسي كعادتها ـ تجارتها التي لم تتخلَّ عنها رغم كل الظروف ـ وتغني كل المواويل التي تثير البكاء لأنها مرتبطة بأحزان القلب.

ثم تتوقف فجأة عن الغناء وتسألني:

ـ متى ستنتهي هذه الجلسات مع طبيبك، فمن العيب وأنتِ أرملة أن تكثري الخروج بدون سبب.

أبتلع كرة الألم التي علقت بالحلق وأجيبها:

ـ ولكن هذه الجلسات ضرورية لي، إنني إلى اليوم لا أعرف من أكون وما جدواي في الحياة.

ويبدو أنها لا تستوعب تماماً ما قلت فتقترح عليَّ حلاً:

ـ «حطّي القصعة وعاونيني، تَرْبحي السماح مني»، فأضع «القصعة» بقربها، وأساعدها في فتل الكسكسي لا من أجل أن أربح السماح منها على رأيها، ولكن لأربح راحتي وألاّ يتحول كلامنا إلى مشادات ثم إلى خصام.

حياتي المملة هذه تبدأ باكراً بحكم الجلبة التي تبدأ في «فندق الزيت» بعد صلاة الفجر بقليل، حيث أبقى مستيقظة في الفراش أسمع والدتي ووالدي وهما يتحدثان عن أحلامهما المتأخرة في جلسة حول فنجان القهوة.

ـ يقولون إن السكنات ستوزع خلال زيارة الرئيس القادمة لقسنطينة.

ـ ومتى هذه الزيارة؟

ـ في تشرين الثاني/ نوفمبر.

ـ يا «خْلاَيَ» يعني في الشتاء، لماذا يحبون أن يلحقوا بنا البهدلة، ألا يمكن أن يوزعوها الآن ما دام الطقس جميلاً ومناسباً للطلاء والتنظيف وإتمام ما يلزم البيت من أعمال.

فيوبخها والدي على «جهلها»:

ـ يا امرأة، «تَحْسْبِي الرئيس قاعَدْ فَارِغْ شْغُلْ».

ـ «ما قاعد إيديرْ والوْ متى من الشْكْلِي عَنْدُه يَزّافْ مَا مَا مَدّش».

في قاموس والدتي الرئيس لا يكون رئيساً إلا إذا وَزَّعَ السكنات على المواطنين وإن لم يفعل ذلك فهو يشغل كرسي الرئاسة دون أن يعمل.

أمام جهل والدتي بأمور البلد، يجد والدي فرصة لإرضاء غروره، ففي كل كلامها هي تخطيء وهو يُصَحِّح حتى يبلغ ذروة غروره فيخرج ويتركها لأنها أرهقته بقلة فهمها. لم تذهب والدتي إلى المدرسة قط، وهي بدوننا نحن أبناءها لا تساوي شيئاً، وحين تحاول أن ترى الأشياء بعينيها تراها بالمقلوب.

وكونها حُرمت من العلم فتلك جريمة والديها، لكن جريمة والدي أكبر، إنه يحسسها دائماً أنها كائن تافه ولقد اقتنعت بذلك حتى

أصبحت أحياناً تستتفه نفسها أمامنا كردة فعل طبيعية لئلا يستفهها أحد.

* * *

في قسنطينة الحياة مميتة، ولا أدري كيف نحب مدينة قاتلة كهذه.

حين خرجت بعد ظهر ذلك اليوم لم أعرف أن فريق الـ «CSC» لكرة القدم سيلعب، فقد خرجت لأزور عائلة «مهدي» لأعرف بعض ما غاب عني، وقد فوجئت بأنصار الـ «CSC» الذين يسمون أنفسهم «السَّنافر» يملأون كل الطرقات المؤدية إلى حي «الدقسي» حيث أريد الوصول.

قسنطينة كلها تركض على إيقاعات أهازيج «السَّنافر» أما الملعب تحت الجامعة بقليل فقد كان يغلي، ولأنه يقع تحت مرتفعات المدينة، فقد تحولت المدينة كلها إلى مدرجات لمتابعة المباراة.

لا فرق بين «السنافر» ابن الستين مثل ابن السادسة. أطفال يزحفون باتجاه الملعب، أو باتجاه أقرب مكان يقابله، آلاف من البشر، وكأن المدينة تشهد ساعة القيامة. بالطبع خلال مدة المقابلة «السنافر» ديكور جميل للمدينة لكن الكارثة تحل إذا ما خسر الفريق، فإن «السنافر» يخرجون من الملعب كالسيل الجارف ويحولون المدينة إلى حطام، يكسرون الواجهات والسيارات والحافلات، ويتحوّل كل شيء إلى ظاهرة غير سلمية. حتى ألوان «السنافر» الأخضر والأسود رمز يقفز بك من السلام الأخضر إلى الموت الأسود بفارق هدف. ولهذا تجد الجميع يتابع المقابلة على الراديو لتغلق المدينة أبوابها قبل

نهاية المقابلة، وتتوقف حالة السير وتحل اللعنة على من تواجد في المدينة بالخطأ في تلك اللحظات.

عند مدخل «الدُّفسي»، «بوسعدية» وفرقته لم تكن تعنيهم المباراة، كانوا يدقون موسيقاهم على الدفوف والقصبة وينتظرون الصدقات التي بفضلها يقيمون «الوَعْدَة» بأشكالهم القديمة وتلك الفانتازيا التي يرتدون تمنحهم روحاً زمنية تغوص في الماضي.

«بوسعدية» لم يكن يعنيه حاضر هذه المدينة ولا مستقبلها، بالنسبة له «الوَعْدَة» تقام في موعدها وتسحل البركات على العالم أو شيء من هذا القبيل، أخرجت قطعة ذات العشرة دنانير ورميتها له، ثم أتممت طريقي. ولم يكن سهلاً الوصول إلى العنوان الذي أريد بسهولة. كل العمارات تشبه بعضها ولا شيء يميز هذه عن تلك، ولكني وصلت بعد أن تعبت ومللت وندمت لأني خرجت في ذلك اليوم.

فتحت لي سيدة في الأربعين، بمجرد أن رأتني راحت ترحب بي، ثم قادتني إلى غرفة الضيوف المرتبة والمفروشة بالزرابي، واعتذرت:

ـــ خالتي «طيطمة» ما هيش هنا، رَاهِي عند «مُومَنْ».

خجلتُ في البداية أن أسألها من تكون، ولكنني شعرت بحاجز يفصلنا وأنا أجهل من تكون فسألتها أخيراً:

ـــ اعذريني ولكني لا أتذكرك جيداً.

فتوقفت عن الحديث ونظرت إليَّ مشفقة وقالت:

ـ ما عرفتينيش؟

فهززت رأسي أنْ لا، فأجابت:

ـ أنا خديجة زوجة عبد الباقي، أطفالي خرجوا ليتابعوا المباراة مع زوجي، وخالتي «طيطمة» حماتي، عند ابنها الثاني «مُومَن» في «الشمارة».

ـ تعرفين أني كنتُ مريضة وفقدت جزءاً من ذاكرتي، أريد صوراً لـ «مهدي».

بشفقة أكثر هرولت نحو غرفة من الغرف، وأحضرت «ألبوماً» من الصور، فتحته أمامي، وسحبت صورة من تحت الغلاف الشفاف وقرّبتها مني:

ـ «مهدي» هو الشاب الجميل بين أخويه «مومن» و«عبد الباقي»، ربي يرحمُه ما شَافْ من الدَّنْيا وَالُو.

ـ هل عشنا في هذا البيت؟

ـ عجيب أنك نسيت كل شيء، طبعاً عشتما هنا في الغرفة المقابلة، كان موعوداً بسكن.. (سكتت قليلاً ثم أردفت): شبان الجزائر كلهم وعدوا بالسكنات فراحوا جميعهم إلى القبور قبل أن يعرفوا معنى الحياة. وفيما كانت تتمم جملتها، قمت وقصدت الغرفة ثم فتحت بابها، وقد لحقت بي خديجة بمزيد من الشفقة وقالت كأنها تعتذر:

ـ مضت سنوات على وفاته وعلى مرضك، الغرفة صارت للأطفال.

ـــ إذن لا أثر لمهدي هنا؟

فقاطعتني بصوت هامس:

ـــ الله يرحمه، اللّي يموت ما يرجعش.

ـــ أقصد أشياءه.

ـــ غير «الألبوم» لم يبق شيء منه، خالتك «طيطمة» تصدقت بكل أشيائه حسب عاداتنا.

ـــ هل كنتِ تحبينه؟

ابتسمت وقالت:

ـــ كان يَتْنَاتْنا تقْدَرْ.

ـــ وأنا هل كنتُ أحبه؟ أقصد هل تزوجنا عن حب؟

ـــ لأن لا أحد هنا سأخبرك بكل شيء، كنتما تحبان بعضكما بعضاً كثيراً، ولكن «عملاً» ما فرّق بينكما، فقد وصلت الخلافات بينكما إلى حافة الطلاق.

ـــ إذن أمه تكرهني.

ـــ لا، بالعكس، كلنا نحبك، وقد ذهبت عند «بني مَشّاط» لتعرف سبب الخلافات بينكما فعرفت أن امرأة من دمه هي التي «سحرته» ليكرهك، وطبعاً عرفنا من هي... لكن الموت خطفه قبل أن نفعل شيئاً.

تفرجت على «الألبوم»، وقد استوقفتني صورة لي وله أمام مركب

«الصخر الأسود» في «العوانة»، صورة تختصر الكثير من الحب، وتترجمه، وقد أخبرتني خديجة أن الصورة أخذت لنا بعد الزواج بسنة.

سألتها:

ــ هل تعرفين لماذا لم ننجب أم أن هذا كان سبباً لخلافاتنا؟

ــ كان يرفض الإنجاب قبل أن يحل السلام على الجزائر.

ــ ولماذا اختار الانخراط في الشرطة السرية؟

ــ لأن لا مستقبل للمهندسين في الجزائر. في الشرطة كان المرتب مغرياً وكانت هناك امتيازات لم يحصل منها على شيء. مات برصاصتين في القلب وتركك بلا ذاكرة.

لم أشأ أن أطلب تفاصيل أخرى، أردت أن أغادر ولكنها استبقتني خوفاً عليّ من فوضى «السنافر» إذا ما خسر الفريق.

دسست بصورتي أنا ومهدي في حقيبتي ورافقتها إلى المطبخ لتحضر لنا قهوة وحليب المساء.

* * *

في الغد قصدت المقبرة لأرى قبره، كنت أبحث عن الحب الذي شرق ليس فقط مني ولكن من ذاكرتي، وقد وقفت طويلاً بين القبور حتى عثرت على قبره، وهناك سألته الكثير من الأسئلة واستحلفته بالله أن لا يعتبرني مجنونة، فقد اختار لي القدر ذاكرة

أخرى صنعتها المخيلة. ذاكرة وهمية عبثت بمشاعري، وزيفت وقائع الحب كلها بوقائع أخرى أكثر هشاشة وكذباً.

أمام قبره تحوّلت إلى امرأة تقليدية حتى العظم، امرأة عاشقة لرجل تحللت جثته تحت التراب منذ سنوات.

ألسنا نحن التقليديين أكثر توهماً أننا نحب أكثر الشخص الذي نفقده أكثر.

وأمام شخص غيّبه الموت نتحول إلى عشّاق متيّمين. ولكن لماذا «مهدي» بالذات، لماذا لم أتذكره بتاتاً، مع كل من لهم صلة به؟

خالد سليم يقول إنني لم أحتمل موته، وإنني بسبب ذلك الموت حرّضت المخيلة على تفريغ أشرطة الذاكرة وإعادة تسجيلها بأحداث مغايرة. ولأن المخيلة تخترع الأحداث فقد لزمها ثلاث سنوات لتصنع أحداث سنة، والمحتمل ـ حسب قوله ـ دائماً أنني فقدت ذاكرتي بعد حادثة موت «مهدي» مباشرة لكن المخيلة أرادت مبرّراً وجاء المبرر في حادثة انهيار البيت.

ولكن مخيلتي ماكرة صنعت لي قصة من أرشيف ما قرأت واستحليت، قصة لا تخلو من العنف والرومانسية والخيانة على طراز الأدب الغربي، مع «مهدي» قصتي فيها الكثير من الحشمة والحياء، والأسرار الممنوعة من البوح، قصة حب عادية ونقية انتهت بالزواج. انتهت، فالحب عندنا يتحوّل إلى ألفة، ويمكن للألفة أن يكسرها الملل أو تمحيها تأثيرات شعوذات قوية من أحد «الشيوخ» المنتشرين في البلد، لعلي فكّرت كثيراً وحاولت أن أجد أكثر من حل

لعضلتي، ولكن فشلت، فلا أنا استطعت أن أتقدم، ولا استطعت أن أتأخر، يومياً أدور في متاهة أسئلتي ولا أصل إلى شيء.

حتى خالد سليم ما عدت أراه، انشغلتُ عنه برواية أروي فيها كل ما حدث لي أسميتها بالمناسبة «اكتشاف الشهوة» لا لأصدم قارئاً تعوّد أن يجد الشهوة في الأزقة الممنوعة ولكن كي أؤرّخ لحياة عشتها قد تستغني عنها الذاكرة إذا ما شاءت المخيلة أن تلعب مرة أخرى.

أكتب في المطبخ ليلاً حتى اقتراب طلوع الفجر، فأنام حتى الظهر، وذلك ما يزعج والدتي فكوني امرأة يعني من العيب أن أنام حتى الظهر، ولكنني كنتُ أستمتع، وأنسى همَّ أن أعيش بذاكرة مُقلَّمة، في الكتابة دائماً تعويض جيد لخسائرنا.

وقبل أن أنهي الرواية بيومين، زارتني الخالة «طيطمة» تحمل ظرفاً «مهماً» ــ حسب ما قالته. ظرفٌ تركه لها «مهدي» قبل بداية خلافاتنا، وطلب منها إن حدث له شيء أن تُعطيه لي.

ــ كنتِ حزينة جداً بعد وفاته، وأنا فقدتُ عقلي من الحزن عليه، فلم أتذكر الظرف، وحين تذكرته، كنتِ في المستشفى، فطلبت من «مومن» أن يزورك ويقرأه عليكِ، خوفاً من أن تموتي فأكون قد أخلفت الوعد، فقرأه عليك وأنتِ في غيبوبتك، ثم أعاده لي، واليوم من حقك أن تقرئيه بنفسك.

مددت يدي، وأخذت منها الظرف. فتحته، كان فيه رسالة وصورة.

صورة لمهدي وتوفيق بسطانجي معاً أمام ثانوية «خزندار»، الصورة لا تحمل أي تاريخ، ولكنها حتماً تعود إلى أيام الثانوي لكليهما.

الصورة كانت مفاجأة لي، مفاجأة صادمة، أقوى من اختراعات المخيلة، وأقوى من كل الاحتمالات التي طرحتها. بعد الصورة فتحت الرسالة وقرأت:

«كوني طليقة كالغزالة،

كوني فوق كل الرجال،

حرّري حناء ظفائرك،

وارتدي فستاناً من الزهور،

أريد أن أراك عروساً في بستاني نخلة بين رمالي،

خمرة في أواني الفخار.

أريدك لي،

يا نجمة سرقت نور قلبي،

يا بدراً،

لليلة زادت كحلاً في عينيها.

أريدك لي،

صوت الشعر يغنيك،

كمان الشوق يعزفك،

وكل أغاني «المالوف».

يا «باني» ...

يا قِبْلَةً للحب،

ولكل الأكوان،

أما فهمت بعد؟

قصة الشحارير التي توقظك،

وقصص السنونوات...

والمآذن حين تُذَكِّرُك

وتاريخ كل الثورات...

أما عرفت يا «باني»

القلب الذي يرغبك،

وهل أنكرت كلياً، زلّتنا، قبلتنا،

معاصينا، خطايانا،

وتوبتنا،

ترددنا

تمردنا،

تنكرت، وأنكرت

تناسيت ...

لا شك أن اللعبة استهوتك،

لكني لن أكون بعيداً

إنْ ...

أردتني ...».

مدهش بعدها أن أقرأ التوقيع: «توفيق بسطانجي»!

* * *

ضعتُ،

واتسعت رقعة الأسئلة من حولي، بالتأكيد «مهدي» ما كان يعرف أنني سأفقد جزءاً من ذاكرتي، وبالتحديد كل ما يتعلق به، وإلّا ما وضعني أمام هذا اللغز.

الصورة لم تقل لي شيئاً، القصيدة فتحت باب الأسئلة على مصراعيه. البحث عن «مهدي» لم يعد مُجدياً، صار عليَّ أن أبحث عن «توفيق».

وحين أقول «توفيق»، يعني باريس، وحين أقول باريس تنغلق الأبواب من جديد أمامي، إذ يستحيل أن تسمح لي إمكاناتي أن أسافر.

وحتى حين سألت «شاهي» عن سرّ الرسالة لم تجبني بشيء. قالت إنها لا تعرف إن كان بيني وبين توفيق علاقة عاطفية أيام الثانوي، فقد كنتُ شديدة التكتم على كل ما يخصني، وبدا لها كل ما في القصيدة صور شعرية ليس لها أية صلة بالواقع.

ــ ربما كتبها توفيق ووجدها مهدي، وهذا كل ما في الأمر. (قالت):

أين الحقيقة؟

لماذا تظهر لتختفي، وتختفي لتظهر؟

في بيتنا الجديد ذي الغرفة الواحدة استحال عليَّ أن أتنفس. طلبت من «شاهي» أن نخرج، وقد ترددتْ قليلاً خوفاً من زوجها، ثم ارتدت حجابها وتأهبت للخروج، وبمجرد أن فتحنا الباب وجدنا بشير زوجها واقفاً كأنه ناقوس.

ــ إلى أين أنتما ذاهبتان؟ (سأل)

فأجابت «شاهي» بسرعة:

ــ إلى البيت، «باني» تريد أن ترافقني.

رمقني بنظرة حادّة، وقال لها:

ــ لا داعي لأن ترافقك، سأرافقك أنا.

أغلقتْ الباب وراءها وابتلعتُ المذاق المرّ لسوء سلوك زوجها. لكأنما أهانني، فقد كان رفضه لي واضحاً... وقد تساءلت بيني وبين نفسي «هل لأنه يظنني مجنونة؟».

لم أمكث في البيت طويلاً. فقد انتظرت قليلاً حتى تختفي «شاهي» وزوجها من الحي، ثم خرجت.

نحو «سان جان» الشارع مكتظ وعابس، الجو كان جميلاً، النساء كلهن متحجبات ما عداي أنا.

في مدينة كهذه تحار ما الذي يثير الرجال فتسمع بين الحين والآخر عبارات جنسية بذيئة تحرشاً بالنساء كلهن محتشمات، وكلهن مفرغات من أي نوع من الإثارة ألبستهن كئيبة، عبوسهن فطري، متأهبات دائماً لحرب ما، شرسات، وأكاد أقول غير جميلات، وحتى اللواتي يبدون متأنقات تجعلك شراستهن المفتعلة تنفر منهن.

نحتاج إلى مؤسسة في علم النفس المتطور جداً لتحلل هذه الظاهرة اليومية المتكررة في شوارعنا. أمام مكتبة «La «SNED استوقفتني فتاة متحجبة.

ــ أستاذة «باني»، هل تسمحين لي بدقيقة؟

فتاة بخمار أسود وعينين تلمعان وابتسامة طفولية كأنها في الخامسة عشرة أو أكبر بقليل.

ــ طبعاً (قلتُ لها وأنا بعد لا أعرف سبباً لتناديني أستاذة).

ــ أريد أن تدخلي معي إلى المكتبة، سأشتري كتابك لتوقعيه لي... في الحقيقة لقد قرأته ولكنه شرف لي أن أحتفظ به موقعاً منك.

ــ أي كتاب (سألتها):

ــ «اكتشاف الشهوة» كتابك الأخير.

كان من السخيف أن أسألها كم كتاباً لدي ما دمت قد حددت كتابي الأخير، وكيف نُشر هذا الكتاب، وكيف لم أعرف من أحد من المحيطين بي أنني كاتبة، فقط سألتها:

ــ كيف أحببت كتابي وهو يتحدث عن الشهوة وأنت متحجبة؟

ضحكت وأجابت بنوع من الحياء:

ــ لأننا كلنا نكتشف الشهوة، شئنا أم أبينا، تحجبنا أم لم نتحجب، إنها شعور غريزي ينتابنا فجأة ونحن نائمون وبين ليلة وضحاها، ونحن بعد أطفالاً في عيون آبائنا نعرف مواضع الشهوة ونعرف أسبابها وأهدافها. لقد أعجبني الكتاب لأنك بيّنت أن الشهوة لدى النساء ليست إثماً إنما هي عمل إلهي.

ــ هل تقصدين أن موضوعاً كهذا لا يتعارض مع التزامك وحجابك؟

ــ صدقيني أستاذتي «باني» هذا المنديل الذي أضعه على رأسي ما هو إلّا رمز لإنسانيتي، ورفض لاعتباري كائناً للجنس فقط.

كانت صغيرة، وتبتسم وتضحك، وتتحدّث بثقة غيّرت نصف مفاهيمي نحو هذا اللباس في ربع دقيقة.

دعوتها للدخول إلى المكتبة، وكان بادياً عليها أنها تعرف تماماً أين تجد كتبي، إذ قادتني إلى الرف بعينه.

وضعت الكتاب بين يدي وسحبت قلماً من حقيبتها وأعطته لي.

فتحت الكتاب على الصفحة الأولى، كانت بيضاء، قلبت الصفحة فإذا بإهداء رقيق في سطرين يزرع القشعريرة في جسدي:

«أيها الفارس القادم إليّ بكمنجته،

شكراً لأنك أعطيت لجسدي ومشاعري اعتباراً

إليك: توفيق بسطانجي»

شعرتُ بدوار في رأسي، ثم كأن الأرض تحركت، ولكني تماسكت. شعرت الفتاة بعدم اتزان وقفتي،

فأمسكت بي:

ــ هل أنتِ بخير.

ــ نعم (قلت لها) أنا بخير...

حين استعدت توازني سألتها:

ــ باسم من الإهداء؟

ضحكت مرة أخرى:

ــ عفواً، لقد نسيت أن أعرفك بنفسي، أنا سهام دالي طالبة بمعهد اللغة العربية وآدابها.

كتبتُ لها إهداءً على الكتاب، ثم وقعته. ثم وقفت أمام رفّ الكتب أتأمل مؤلفاتي الأربعة فإذا بشاب يسألني بتهذيب:

ــ سيدة «باني» هل لك أن توقعي لي الكتاب؟

كانت الطالبة سهام دالي لا تزال واقفة بقربي، سحب الشاب نسخة أخرى من «اكتشاف الشهوة» وقدمه لي مع قلم ثم قدم نفسه:

ـ محمد بولله‌فة. أنا مهندس في الإعلام الآلي لكني أحب الأدب.

تدهشني هذه المدينة بنماذج قمة في التهذيب وكأنها تريد أن تغير نظرتي الناقمة عليها.

كتبت الإهداء لمحمد، وسألته: كيف تتوقع محتوى الكتاب؟

فأجاب:

ـ لقد قرأته، ولكني أحببت أن آخذ نسخة موقعة منك. إنه كتاب جيد، مع أنك أسأت فهم الرجال كثيراً.

هل تظنين أننا كلنا قساة؟

كان بودي أن أسأله: هل كتبتُ فعلاً ذلك؟

ولكني كنتُ سأبدو سخيفة أمامه بسؤالي فحاولت أن أشرح، ولكنه قاطعني وهو يبتسم:

ـ صدقيني سيدة «باني» كل الرجال المثقفين يعانون في مجتمعنا، نحن فئة منبوذة لأننا لا نكرس تقاليد العنف الكثيرة لدينا. العنف ضد الرغبة في الحرية، والرغبة في إثبات الذات والاستقلالية، وإلى غير ذلك من حقوقنا الضائعة.

ـ هل تسمح أن أعتذر لك على الكتاب؟

ضحك، ورفض ذلك:

ـــ بالطبع لا، أريد إهداءً جميلاً، فقد اعتذرت ما فيه الكفاية في لقائك مع طلبة الجامعة أمسية الإثنين الماضي.

كان يخلط لي أوراقي هو أيضاً دون أن يشعر، ولكنني أردت أن أتأكد أكثر فسألته:

ـــ هل كنت حاضراً؟

ـــ طبعاً (أجاب)، إنها فرصة ثمينة لمن أراد رؤيتك قبل عودتك إلى باريس.

وقعتُ له الكتاب، وتحدثت معه قليلاً ومع سهام عن المدينة، ثم غادرت المكتبة وأنا لا أعرف أين سأتوجه، هل إلى بيتنا في شارع «شوفالييه» أم إلى بيت عمي محيي الدين في «فَنْدقَ الزيت» أم إلى بيت آخر أجهله.

* * *

في منتصف النهار، قسنطينة تتحوّل إلى مطبخ تنبعث منه الروائح اللذيذة. إنها مدينة مشهورة بمطبخها الفاخر، ولهذا لا تندهش في هذا الوقت بالذات، أن ترى محلات «البيتزا» والمخابز، والمطاعم الصغيرة مكتظة بالزبائن، الروائح هي التي تجعل الناس لا يقاومون.

الجيد أنها مدينة تطعمك حين تجوع وحين لا تجوع، وهي في نقطة فريدة لا تعاتبك إن كنت سميناً أو نحيفاً، المهم أن تأكل حين تشعر بالرغبة في ذلك، ولعلّ المثل الذي تقدسه وتردده دائماً يقول «كُلْ ما يعجبك والبس ما يعجب الناس».

حريتك كلها تكمن في إرضاء رغبة واحدة، بعدها تنتهي حريتك لأنك نلت ما تريده من أكل.

بالمقابل أظن أنها مدينة لا تصلح للفقراء.

كنتُ أمشي على غير هدىً فقد انكسرت بوصلتي على خشبة ما ولم أعد أعرف أين أذهب.

ترى ماذا لو أن «شاهي» رافقتني؟

ولماذا سمح القدر بأن يسخر مني وأنا بمفردي؟

كان عليّ أن أصل إلى خالد سليم لأسأله سؤالاً واحداً فقط يجعلني أنهي دوامتي، وأعود إلى المكان المناسب لي، وحتماً لن أخرج منه مرة أخرى حتى لا أضيع.

* * *

خلال انتظاري له في مكتبه تمنيت فقط أن تكون باريس مرحلة حقيقية في حياتي، إذ لم أكن أريد أن أخسر تجربتي تلك بمرّها وحلوها.

أغمضت عيني واستسلمت لمذاق شفاه «إيس...» التي كانت معبراً نحو التحرر.

يلزمنا دائماً جسدٌ ما، خطيئة أولى، لنلقي بأجسادنا في بحر التجربة، ثم نتعلم كيف نسبح، وكيف نخرج منه، ويصبح من

السهل علينا أن نعيد الكرّة ثانية. غصت أكثر في البحر، فاستعدتُ لمسات توفيق، وامتلاكه الكلّي لجسدي، ذلك الامتلاك الجميل الذي وافقتُ عليه وتمنيته أن يتكرر لأنه اختياري أنا ثم قراري أنا، ثم لأنه عملية انسجام.

ــ صباح الخير.

أيقظني الصوت الرجالي من غفوتي، فانتبهت إلى أنه رجل في الخمسينيات من عمره، وسيم وأنيق ويرتدي مئزراً أبيض.

ــ أنا آسف لأني أخرتكما كل هذا الوقت، لم يكن في الغرفة سواي. نظرت إليه لأستفهم ولكنه قال وهو يكتب ورقة ما:

ــ وهذا أمر بخروجك اليوم من المستشفى... وهذا توقيعي... وهذا ختمي عليه.

مدّ الورقة إليّ فلم أفهم، هل أمسكها وأذهب، أم أرفضها وأستفهم وقد أظل هنا، في هذا المستشفى اللعين؟

ومع هذا مددت يدي ولكن يداً أخرى أخذت الورقة. بالكاد رفعتُ رأسي لأرى الشخص فإذا به: «توفيق بسطانجي». تمسكتُ به وخرجنا من مستشفى الأمراض العقلية بقسنطينة في يوم جميل وهادئ.

ركبنا السيارة معاً، وحين تحركت بنا احتضنتُ ذراعه وأسندتُ رأسي إلى كتفه، وأنا أشم رائحته. نفسها تلك الرائحة التي جعلتني أشتهيه وأستسلم له، وأتمناه دائماً أن يكون قريباً مني.

ــ إني خائفة، أن أغمض عيني، وحين أفتحهما أجد حقيقة أخرى مغايرة لهذه اللحظة الجميلة.

فأجابني بصوته المبلل حُباً:

ــ ما دامت الجزائر بخير، فلم يعد هناك داعٍ لهروب آخر. أمْسَكَ بيدي وضغط عليها قليلاً.

طارت بنا السيارة، حلّقت عالياً في سماء قسنطينة، مرت السنونوات، مرت طيور «البلاّرج».

تضاحكت الغيوم، خجلت الشمس من وضوح حبنا، لفحتني نسمات باردة، غمستُ أنفي في عطره، أردت أن أعيش بقية حياتي عند عنقه، في حضنه أردت أن أعيش كل الأزمنة، كل احتمالات العشق، كل احتمالات الحياة، كل احتمالات الموت...

تقاطعت أصواتٌ خلفي:

ــ هل تظن أنه هروب انفصامي؟

ــ أكاد أجزم بذلك.

خلف الغيوم كانت جدتي تصلي، كان «إيس...» يكتب قصيدته، كان «شرف» يحمل جريدته، كان توفيق يعزف، «ماري» تعزف، «ميسم» تخفي دموعها، «شاهي»، «أمي»، «أبي»، «إلياس»...

تجاوزت الجميع وأنا أبلغ أفقاً ما.

انتهت في ٢٦ أيار/ مايو ٢٠٠٤

المؤلفة

جزائرية تنتمي لعائلة بربرية عريقة.

ولدت في ٢٠ نوفمبر ١٩٦٧ في عاصمة الأوراس (آريس) بالشرق الجزائري.

ـ ماجستير في اللغة العربية وآدابها في سنة ٢٠٠٠.

ـ حالياً تحضر لشهادة الدكتوراه منتسبة لجامعة وهران (غرب الجزائر).

ـ عملت في حقل الصحافة المكتوبة والمسموعة في الجزائر من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٥، وكان لها زاوية شهيرة في أسبوعية «الحياة الجزائرية».

ـ انتقلت إلى لبنان سنة ١٩٩٥ بعد أن تزوجت بلبناني.

ـ لها إسهامات في الصحافة اللبنانية (الكفاح العربي ـ الحياة ـ السفير، وعناوين أخرى).

صدر لها:

ـ **لحظة لاختلاس الحب** (قصص) ـ دار الفارابي ، بيروت ١٩٩٧.

ـ **مزاج مراهقة** (رواية) دار الفارابي بيروت ١٩٩٩.

ـ **تاء الخجل** (رواية)، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠٣.

فضيلة الفاروق

إكتشاف الشهوة

هل تعرفين حين تزوجت كنت أظن
أن كل مشاكلي انتهت ولكني
اكتشفت أنني دخلت سجنا فيه كل
أنواع العذاب أنا «باني بسطانجي»
التي منعت طيلة حياتها حتى مجرد
أن تفكر في ذكر، بين ليلة وضحاها
أصبح المطلوب مني أن أكون عاهرة
في الفراش، أن أمارس كما يمارس
هو، أن أسمعه كل العبارات، أن
أمنحه مؤخرتي ليخترقها بشهوة،
أن أكون امرأة منسلخة الكيان، أن
أكون نسخة عنه وعن تفكيره...
المشكلة تجاوزتني يا «شاهي»
ولهذا تطلقت...

(من الرواية)